

سِيَرُ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ

سير مختصرة من كتاب «سير أعلام النبلاء»
للإمام الذهبي

أعدَّها : محمد بن سليمان المهنا


بسم الله الرحمن الرحیم



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فإنَّ سِيَرَ الأئمَّةِ الأربعة (**أبي حنيفةَ ومالك والشافعيِّ واحمدَ رحمهم الله**) من أعظم السِيَرِ وأجلِّها، وأنفعها وأمتعها، وأولاها بالنشر والإشهار.

وقد ساقها الإمام الذهبي في كتابه الفَذِّ العظيم «**سِيَرِ أعلام النُبلاء**» سياقًا جميلاً حسنًا، لكنّه سياق لا يخلو من طول وتفصيل، فاستعنتُ اللهَ تبارك تعالى، واختصرتُها اختصاراً بالغًا، مع المحافظة على أكثر ما اشتملت عليه من المقاصد والفوائد، حتى صارت خُلاصة طيِّبة سائغة للقارئين.

أدعو إخواني وأخواتي إلى قراءتها قراءة فرديَّة وجماعيَّة، وأسألهم أن ينشروها بكل وسيلة، وأن يذكروا مُعدَّها بدعوات صالحات.

الإمام أبو حنيفة

فَقِيْـهُ المِلَّةِ، عَالِمُ العِـرَاقِ، الإِمَامُ أَبُو حَنِيْفَـةَ النُّعْمَانُ بنُ ثَابِـتِ التَّيْمِيُّ، الكُوْفِيُّ، مَوْلَى بَنِي تَيْمِ اللهِ بنِ ثَعْلَبَةَ. يُقَالُ: إِنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الفُرسِ.

وُلِدَ سَـنَةَ ثَمَانِيْنَ، فِي حَيَاةِ صِغَارِ الصَّحَابَةِ، وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ حَرفٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُم، وَرَأَى أَنَسَ بنَ مَالِكٍ -رضي الله عنه- لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الكُوْفَةَ.

رَوَى عَنْ عَطَاءِ بنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَهُوَ أَكْبَرُ شَيْخٍ لَهُ وَأَفْضَلُهُم -عَلَى مَا قَال- وَعَنِ حَمَّادِ بنِ أَبِي سُلَيْمَانَ -وَبِهِ تَفَقَّهَ- وعن الشَّعْبِيِّ، وَنَافِعٍ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ، وَقَتَادَةَ، وَعَاصِمِ بنِ بَهْدَلَةَ[1]، وَمُحَمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ، وَهِشَامِ بنِ عُرْوَةَ، وَخَلْقٍ سِوَاهُم، حَتَّى

(١) وهو عاصم بن أبي النجود، صاحب القراءة المعروفة.



إِنَّهُ رَوَى عَنْ شَيْبَانَ النَّحْوِيِّ وَهُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ، وَعَنْ: مَالِكِ بنِ أَنَسٍ وَهُوَ كَذَلِكَ أصغَرُ مِنْه!

وَعُنِيَ بِطَلَبِ الآثَارِ، وَارْتَحَلَ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا الفِقْهُ وَالتَّدْقِيْقُ فِي الرَّأْيِ وَغوَامِضِه، فَإِلَيْهِ المُنْتَهَى، وَالنَّاسُ عِيَالٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ.

حَدَّثَ عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيْرٌ، ذَكَرَ مِنْهُم شَيْخُنَا أَبُو الحَجَّاجِ المِزِّي فِي (تَهْذِيْبِهِ) هَؤُلاَءِ:

إِبْرَاهِيْمُ بنُ طَهْمَانَ -عَالِمُ خُرَاسَانَ- وَحَمْزَةُ الزَّيَّاتُ -وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِهِ- وَأَبُو عَاصِمٍ النَّبِيْلُ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَعَلِيُّ بنُ مُسْهِرٍ القَاضِي، وَهُشَيْمٌ، وَيَزِيْدُ بنُ هَارُوْنَ، وَالقَاضِي أَبُو يُوْسُفَ، وَابْنُهُ: حَمَّادُ بنُ أَبِي حَنِيْفَةَ[1].

(١) ذكر الذهبي -رحمه الله- عدداً كبيراً من العلماء الذين أخذوا عن أبي حنيفة، اكتفيتُ بذكر بعضهم رغبة في الاختصار.

قال إِسْـماعِيْلُ بنُ حَمَّادِ بنِ أَبِـي حَنِيْفَةَ: وُلِدَ جَدِّي (أبو حنيفة النعمان بن ثابت) فِي سَـنَةِ ثَمَانِيْنَ، وَذَهَبَ أبوه ثَابِتٌ إِلَـى عَلِـيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَهُـوَ صَغِيْرٌ، فَدَعَا لَـهُ بِالبَرَكَـةِ فِيْهِ وَفِي ذُرِّيَتِه، وَنَحْـنُ نَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَكُوْنَ اسْـتَجَابَ ذَلِكَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِيْنَا.

قال النضرُ بنُ مُحَمَّدٍ: كَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ جَمِيْلَ الوَجْهِ، سَرِيَّ الثَّوْبِ، عَطِرَ الرِّيحِ.

وقـال أبو يُوْسُـف: كَانَ أَبُـو حَنِيْفَةَ رَبْعَة[1]، مِنْ أَحْسَـنِ النَّـاسِ صُوْرَةً، وَأَبلَغِهِم نُطْقًـا، وَأَعذَبِهِم نَغمَةً، وَأَبْيَنِهِم عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

وقال حمَّادُ بنُ أَبِي حَنِيْفَة: كَانَ أَبِي جَمِيْلاً، تَعلُوْهُ سُمْرَةٌ، حَسَنَ الهَيْئَةِ، كَثِيْرَ التَّعطُّرِ، لاَ يَتَكَلَّمُ إِلاَّ جَوَابًا، وَلاَ يَخُوضُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهِ.

(١) رَبْعَة: أي متوسِّط القامة، ليس بالطويل جداً ولا بالقصير.



وقال ابنُ المُبَارَك: مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَوقَرَ فِي مَجْلِسِـهِ، وَلاَ أَحْسَنَ سَمْتـًا وَحِلْمـًا مِنْ أَبِي حَنِيْفَة.

وقال قيسُ بنُ الرَّبِيْع: كَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ وَرِعـًا، تَقِيـًّا، مُفْضِلاً عَلَى إِخْوَانِه.

وقال شَرِيْك: كَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ طَوِيْلَ الصَّمْتِ، كَثِيْرَ العَقْلِ.

وقَالَ يَزِيْدُ بنُ هَارُوْنَ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَحلَمَ مِنْ أَبِي حَنِيْفَةَ.

وقَالَ العِجْلِيُّ: كَانَ أبو حنيفة خَزَّازاً يَبِيْعُ الخَزَّ[1].

قال العِجْلي: قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: قَدِمْتُ البَصْرَةَ، فَظَنَنْتُ أَنِّي لاَ أُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَجبتُ فِيْهِ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي فِيْهَا جَوَابٌ، فَجَعَلتُ عَلَى نَفْسِـي أَلاَّ أُفَارِقَ حَمَّاد بن أبي سُليْمان حَتَّى يَمُوْتَ، فَصَحِبتُه ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَة.

وقـال أَحْمَـدُ بنُ الصَّبَّاح، سَـمِعْتُ الشَّـافِعِيَّ قَـالَ: قِيْلَ لِمَالِكٍ: هَلْ رَأَيْتَ أَبَا حَنِيْفَةَ؟

---

(١) الخز: قماش ناعم يشبه الحرير.

قَـالَ: نَعَـمْ، رَأَيْتُ رَجُلاً لَـوْ كُلَّمَكَ فِي هَذِهِ السَّـارِيَةِ أَنْ يَجْعَلَهَا ذَهَبًا، لَقَامَ بِحُجَّتِه(١).

وقال القَاضِي أبو يُوْسُف: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ أَبِي حَنِيْفَةَ، إِذْ سَـمِعْتُ رَجُلاً يَقُوْلُ لآخَرَ: هَذَا أَبُو حَنِيفَـةَ لاَ يَنَامُ اللَّيلَ. فَقَـالَ أَبُو حَنِيْفَـةَ: وَاللهِ لاَ يُتَحَدَّثُ عَنِّي بِمَا لَـمْ أَفْعَلْ، فَكَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ صَلاَةً، وَتَضَرُّعًا، وَدُعَاءً.

وَقَـالَ أَبُو عَاصِـمٍ النَّبِيْـلُ: كَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ يُسَـمَّى الوَتِدَ؛ لِكَثْرَةِ صَلاَتِه.

قَالَ مِسْعَرُ بنُ كِدَامٍ: رَأَيْتُ أَبَا حَنِيْفَةَ قَرَأَ القُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ.

وقال القاسـمُ بـنُ مَعْنٍ: قـام أبو حَنِيْفَـةَ لَيْلَةً يُـرَدِّدُ قَوْلَه تَعَالَـى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦﴾ [سـورة القمر: آية ٤٦] وَيَبْكِي، وَيَتَضَرَّعُ إِلَى الفَجْرِ.

(١) أي أنه كان ذا بيان مُشرِق وحُجَّة قوية.



قال زيدُ بنُ كُمَيْت: سَمِعتُ رَجُلاً يَقُوْلُ لأَبي حَنِيْفَةَ: اتَّقِ اللهَ. فَانْتَفَضَ، وَاصفرَّ، وَأَطرَق، وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْراً، مَا أَحوَجَ النَّاسَ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى مَنْ يَقُوْلُ لَهُم مِثْلَ هَذا.

قَالَ بشرُ بنُ الوَلِيْدِ: طَلَبَ أبو جعفر المَنْصُوْرُ أَبَا حَنِيْفَة، فَأَرَادَه عَلَى القَضَاءِ، وَحَلَفَ عليه لَيَلِيَنَّ القضاء، فَأَبَى، وَحَلَفَ: إِنِّي لاَ أَفْعَلُ. فَقَالَ له الرَّبِيْعُ الحَاجِبُ: يا أبا حنيفة تَرَى أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يَحلِفُ وَأَنْتَ تَحلِفُ؟ قَالَ: أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عَلَى كَفَّارَةِ يَمِيْنِه أَقْدَرُ مِنِّي. فَأَمَرَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ، فَمَاتَ فِيْهِ بِبَغْدَادَ.

وَقال مغيثُ بنُ بُدَيْل: دَعَا المَنْصُوْرُ أَبَا حَنِيْفَةَ إِلَى القَضَاءِ، فَامْتَنَعَ، فَقَالَ المنصور: أَتَرغَبُ عَمَّا نَحْنُ فِيْهِ؟ فَقَالَ أبو حنيفة: إِني لاَ أَصْلُحُ. قَالَ: كَذَبتَ. فقَالَ: فَقَدْ حَكَمَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عَلَيَّ أَنِّي لاَ أَصْلُحُ، فَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا، فَلاَ أَصلُحُ، وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا، فَقَدْ أَخْبَرتُكُم أَنِّي لاَ أَصلُحُ. فَحَبَسَهُ.

وَقَـالَ الفَقِيْهُ أَبُـو عَبْدِ اللهِ الصَّيْمَرِيُّ: لَـمْ يَقْبَلِ أبو حنيفة العَهْدَ بِالقَضَاءِ، فَضُرِبَ، وَحُبِسَ، وَمَاتَ فِي السِّجْنِ.

قَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: أَبُو حَنِيْفَةَ أَفْقَهُ النَّاسِ.

وقَالَ يَحْيَى بنُ سَـعِيْدٍ القَطَّانُ: لاَ نَكذبُ اللهَ، مَا سَـمِعنَا أَحْسَنَ مِنْ رَأْيِ أَبِي حَنِيْفَةَ، وَقَدْ أَخذنَا بِأَكْثَرِ أَقْوَالِه.

وَقَالَ عَلِيُّ بنُ عَاصِمٍ: لَوْ وُزِنَ عِلْمُ الإِمَامِ أَبِي حَنِيْفَةَ بِعِلْمِ أَهْلِ زَمَانِهِ، لَرَجَحَ عَلَيْهِم.

وَقَـالَ حَفْصُ بنُ غِيَاثٍ: كَلاَمُ أَبِـي حَنِيْفَةَ فِي الفِقْهِ، أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، لاَ يَعِيبُه إِلاَّ جَاهِل.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: النَّاسُ فِي الفِقْهِ عِيَالٌ عَلَى أَبِي حَنِيْفَةَ.

قُلْـتُ: الإِمَامَةُ فِي الفِقْهِ وَدَقَائِقِه مُسَـلَّمَةٌ إِلَى هَذَا الإِمَامِ، وَهَذَا أَمرٌ لاَ شَكَّ فِيْهِ.



وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَذْهَانِ شَيْءٌ

إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيْلِ

وَسِيْرَتُه تَحْتَمِلُ أَنْ تُفرَدَ فِي مُجَلَّدَيْن، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَرَحِمَه.

تُوُفِّيَ: شَهِيْداً، مَسْقِيّاً[1] فِي سَنَةِ خَمْسِيْنَ وَمائَةٍ، وَلَهُ سَبْعُوْنَ سَنَة.

وَابْنُهُ الفَقِيْهُ حَمَّادُ بنُ أَبِي حَنِيْفَة، كَانَ ذَا عِلْمٍ، وَدِيْنٍ، وَصَلَاحٍ، وَوَرَعٍ تَامٍّ.

تُوُفِّيَ حَمَّادٌ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِيْنَ وَمائَة.

❋❋❋

(١) أي أنه سُقيَ السُمَّ ليموت، رحمة الله عليه.

الإِمَام مَالِك

هُوَ شَـيْخُ الإِسْـلَامِ، حُجَّةُ الأُمَّـةِ، إِمَامُ دَارِ الهِجْـرَةِ، أَبُو عَبْـدِاللهِ مَالِـكُ بنُ أَنَسِ بنِ مَالِـكِ بن أَبِي عَامِـرٍ الأَصْبَحِيُّ، المَدَنِيُّ، وَأُمُّهُ هِيَ عَالِيَةُ بِنْتُ شَرِيْكٍ الأَزْدِيَّةُ.

مَوْلِدُ مَالِكٍ عَلَى الأَصَحِّ: فِي سَـنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْـعِيْنَ، عَامَ مَـوْتِ أَنَسٍ خَادِمِ رَسُـوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَشَـأَ فِي صَوْنٍ وَرَفَاهِيَةٍ وَتَجمُّلٍ.

وَطَلَبَ العِلْمَ وَهُوَ حَدْثٌ (ابْنُ بِضْعَ عَشْـرَةَ سَـنَةَ) فَأَخَذَ عَنْ: نَافِـعٍ، وَابْـنِ المُنْكَدِرِ، وَالزُّهْرِيِّ، وهِشَـامُ بْـنُ عُرْوَةَ، وَخَلْق. وَتَأَهَّل لِلْفُتْيَا، وَجَلَسَ لِلإِفَادَةِ، وَلَهُ إِحْدَى وَعِشْرُوْنَ سَـنَةً، وَحَدَّث عَنْهُ جَمَاعَةٌ وَهُوَ شَـابٌّ طَـرِيٌّ، وَقَصَدَهُ طَلَبَةُ العِلْمِ مِنَ الآفَاقِ فِي آخِرِ دَوْلَةِ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُوْرِ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ فِي خِلَافَةِ الرَّشِيْدِ، وَإِلَى أَنْ مَاتَ.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَيَضْرِبَنَّ النَّـاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَلاَ يَجِدُوْنَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِيْنَةِ)[1].

وَيُـرْوَى عَنِ سـفيان بن عُيَيْنَـةَ أَنَّه قَالَ: كُنْـتُ أَقُوْلُ: هُوَ سَـعِيْدُ بنُ المُسَـيِّبِ، حَتَّى قُلْتُ: كَانَ فِي زَمَانِهِ سُـلَيْمَانُ بنُ يَسَـارٍ، وَسَـالِمُ بنُ عَبْـدِ اللهِ، وَغَيْرُهُمَـا. ثُمَّ أَصْبَحْـتُ اليَوْمَ أَقُوْلُ: إِنَّهُ مَالِكٌ، لَمْ يَبْقَ لَهُ نَظِيْرٌ بِالمَدِيْنَةِ.

وَذَكَرَ أَبُو المُغِيْرَةِ المَخْزُوْمِيُّ أَنَّ مَعْنَاهُ: مَا دَامَ المُسْلِمُوْنَ يَطلبُوْنَ العِلْمَ لاَ يَجِدُوْنَ أَعْلَمَ مِنْ عَالِمٍ بِالمَدِيْنَةِ.

فَيَكُوْنُ عَلَى هَذَا: سَعِيْدَ بنَ المُسَيِّبِ، ثُمَّ بَعْدَهُ مَنْ هُوَ مِنْ شُيُوْخِ مَالِكٍ، ثُمَّ مَالِكٍ، ثُمَّ مَنْ قَامَ بَعْدَهُ بِعِلْمِهِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٢٩٩) والترمذي (٢٦٨٢) وابن حبان (٢٣٠٨) ورجاله ثقات، إلا أن ابن جريج وأبا الزبير مدلسان، وقد عنعنا، وأعلَّه الامام أحمد بالوقف، ومع ذلك فقد حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان.



قُلْتُ: كَانَ عَالِمَ المَدِيْنَةِ فِي زَمَانِهِ بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ: زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ، وَعَائِشَةُ، ثُمَّ ابْنُ عُمَرَ، ثُمَّ سَعِيْدُ بنُ المُسَيِّبِ، ثُمَّ الزُّهْرِيُّ، ثُمَّ عُبَيْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ، ثُمَّ مَالِكٌ.

قال ابْنِ عُيَيْنَةَ: مَالِكٌ عَالِمُ أَهْلِ الحِجَازِ، وَهُوَ حُجَّةُ زَمَانِهِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ -وَصَدَقَ وَبَرَّ-: إِذَا ذُكر العُلَمَاءُ فَمَالِكٌ النَّجْم.

قَالَ الزُّبَيْرُ بنُ بكَّارٍ فِي حَدِيْثِ: (لَيَضرِبَنَّ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ...).

كَانَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ إِذَا حَدَّث بِهَذَا فِي حَيَاةِ مَالِكٍ، يَقُوْلُ: أُرَاهُ مَالِكاً.

فَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ زَمَاناً ثُمَّ رَجعَ بَعْدُ، فَقَالَ: أُرَاهُ عَبْدَ اللهِ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ العُمَرِيَّ الزَّاهِدَ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: لَيْسَ العُمَرِيُّ مِمَّنْ يَلْحَقُ فِي العِلْمِ وَالفِقْهِ بِمَالِكٍ، وَإِنْ كَانَ شَرِيْفاً سَيِّداً، عَابِداً.



قُلْـتُ: قَدْ كَانَ لِهَذَا العُمَرِيِّ عِلْمٌ وَفقهٌ جَيِّدٌ وَفَضْلٌ، وَكَانَ قَـوَّالاً بِالحَقِّ، أَمَّاراً بِالعُرْفِ، مُنْعَزِلاً عَـنِ النَّاسِ، وَكَانَ يَحُضُّ مَالِكًا إِذَا خَلاَ بِهِ عَلَى الزُّهْدِ، وَالانقطَاعِ وَالعُزلَة، فَرَحِمَهُمَا الله.

وذكر الحَافِـظُ ابْنُ عَبْدِ البَـرِّ فِي (التَّمْهِيْـدِ): أَنَّ عَبْدَ اللهِ العُمَرِيَّ العَابِدَ كَتَبَ إِلَى مَالِكٍ يَحُضُّهُ عَلَى الانْفِرَادِ وَالعَمَلِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ: إِنَّ اللهَ قَسَـمَ الأَعْمَالَ كَمَا قَسَـمَ الأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلاَةِ، وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الجِهَادِ.

فَنَشْـرُ العِلْم مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ البِرِّ، وَقَدْ رَضِيْتُ بِمَا فُتِحَ لِي فِيْهِ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيْهِ بِدُوْنِ مَا أَنْتَ فِيْهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ كِلاَنَا عَلَى خَيْرٍ وَبِرٍّ.



فَصْلٌ

وَلَـمْ يَكُنْ بِالمَدِيْنَةِ عَالِمٌ مِنْ بَعْدِ التَّابِعِينَ يُشْـبِهُ مَالِكًا فِي العِلْمِ، وَالفِقْهِ، وَالجَلاَلَةِ، وَالحفظِ، فَقَدْ كَانَ بِهَا بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِثْلُ سَـعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ، وَالفُقَهَاءِ السَّبْعَة، وَالقَاسِم، وَسَالِم، وَعِكْرِمَةَ، وَنَافِعٍ، وَطَبَقَتِهِم، ثُمَّ زَيْدِ بنِ أَسْـلَمَ، وَابْنِ شِـهَابٍ، وَأَبِي الزِّنَادِ، وَيَحْيَى بنِ سَعِيْدٍ، وَصَفْوَانَ بنِ سُلَيْم، وَرَبِيْعَةَ بنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَطَبَقَتِهِم، فَلَمَّا تَفَانَوْا، اشْتُهِرَ ذِكْرُ مَالِكٍ بِهَا، وَابْنِ أَبِي ذِئْـبٍ، وَعَبْدِ العَزِيْزِ بنِ المَاجَشُـوْنِ، وَالدَّرَاوَرْدِيِّ، وَأَقْرَانِهِم، فَكَانَ مَالِكٌ هُوَ المُقَدَّمَ فِيْهِم عَلَى الإِطْلاَقِ، وَالَّذِي تُضرَبُ إِلَيْهِ آبَاطُ الإِبِلِ مِنَ الآفَاق، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

قـال الرُّعَيْنِيُّ: قَـدِمَ المَهْدِيُّ المَدِيْنَةَ، فَبَعَـثَ إِلَى مَالِكٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لِابنيه هَارُوْنَ وَمُوْسَى: اسْمَعَا مِنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يُجِبْهُمَا، فَأَعْلَمَا المَهْدِيَّ، فَكلَّمَـهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ!

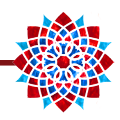


العِلْمُ يُؤْتَى أَهْلُهُ. فَقَالَ: صَدَقَ مَالِكٌ، صِيْرَا إِلَيْهِ.

فَلَمَّا صَارَا إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ مُؤَدِّبُهُمَا: اقْرَأْ عَلَيْنَا. فَقَالَ مالك: إِنَّ أَهْلَ المَدِيْنَةِ يَقْرَؤُونَ عَلَى العَالِمِ، كَمَا يَقْرَأُ الصِّبْيَانُ عَلَى المُعَلِّمِ، فَإِذَا أَخْطَؤُوا، أَفْتَاهُم.

فَرَجَعُوا إِلَى المَهْدِيِّ، فَبَعَثَ إِلَى مَالِكٍ، فَكَلَّمَه، فَقَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ شِهَابٍ يَقُوْلُ: جَمَعْنَا هَذَا العِلْمَ فِي الرَّوْضَةِ مِنْ رِجَالٍ، وَهُمْ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: سَعِيْدُ بنُ المُسَيِّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ، وَعُرْوَةُ، وَالقَاسِمُ، وَسَالِمٌ، وَخَارِجَةُ بنُ زَيْدٍ، وَسُلَيْمَانُ بنُ يَسَارٍ، وَنَافِعٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ هُرْمُزَ، وَمِنْ بَعْدِهِم: أَبُو الزِّنَادِ، وَرَبِيْعَةُ، وَيَحْيَى بنُ سَعِيْدٍ، وَابْنُ شِهَابٍ، كُلُّ هَؤُلاَءِ يُقْرَأُ عَلَيْهِم، وَلاَ يَقْرَؤُونَ.

فَقَالَ المهدي: فِي هَؤُلاَءِ قُدْوَةٌ، صِيْرُوا إِلَيْهِ، فَاقْرَؤُوا عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا.



قـال قُتَيْبَة: كُنَّـا إذَا دَخَلنَا عَلَى مَالِكٍ، خَـرَجَ إِلَيْنَا مُزَيَّنـًا، مُكَحَّلاً، مُطَيَّبًا، قَدْ لَبِسَ مِنْ أَحْسَـنِ ثِيَابِه، وَتَصَدَّرَ الحَلْقَةَ، وَدَعَا بِالمَرَاوِحِ، فَأَعْطَى لِكُلٍّ مِنَّا مَرْوَحَةً.

قـال مُحَمَّدُ بنُ عُمَـر: كَانَ مَالِكٌ يَأْتِي المَسْـجِدَ، فَيَشْـهَدُ الصَّلَوَاتِ، وَالجُمُعَةَ، وَالجَنَائِزَ، وَيَعُوْدُ المَرْضَى، وَيَجْلِسُ فِي المَسْجِدِ، فَيَجتَمِعُ إِلَيْهِ أَصْحَابُه، ثُمَّ تَرَكَ الجُلُوْسَ، فَكَانَ يُصَلِّي وَيَنصَرِفُ، وَتَرَكَ شُـهُوْدَ الجَنَائِزِ، ثُـمَّ تَرَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَالجُمُعَةَ، وَاحْتَمَـلَ النَّاسُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَكَانُوا أَرغَبَ مَـا كَانُوا فِيْهِ، وَرُبَّمَا كُلِّمَ فِي ذَلِكَ، فَيَقُوْلُ: لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعُذْرِه[1].

قَالَ: وَكَانَ مَجْلِسُـهُ مَجْلِسَ وَقَارٍ وَحِلم، فقد كَانَ رَجُلاً مَهِيْبًـا، نَبِيْلاً، لَيْسَ فِي مَجْلِسِـهِ شَيْءٌ مِنَ المِرَاءِ وَاللَّغَطِ، وَلاَ رَفْعُ صَوْتٍ.

---

(١) أُصيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمرض منعه من شهود الجمعة والجماعة.

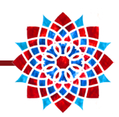


قال إِسْـمَاعِيْلُ بنُ أَبِي أُوَيْس: سَـأَلْتُ خَالِـي مَالِكًا عَنْ مَسْـأَلَةٍ، فَقَالَ لِي: قِرَّ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى السَّـرِيْرِ، ثُمَّ قَالَ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ.

وَكَانَ لاَ يُفْتِي حَتَّى يَقُوْلَهَا.

قَـالَ أَبُو مُصْعَـبٍ: كَانَ مَالِـكٌ لاَ يُحَـدِّثُ إِلاَّ وَهُوَ عَلَى طَهَارَةٍ؛ إِجْلاَلاً لِلْحَدِيْثِ.





صِفَةُ الإِمَامِ مَالِكٍ

قال عِيْسَى بنِ عُمَر: مَا رَأَيْتُ قَطُّ بَيَاضًا، وَلاَ حُمْرَةً أَحْسَنَ مِنْ وَجْهِ مَالِكٍ، وَلاَ أَشَدَّ بَيَاضِ ثَوْبٍ مِنْ مَالِكٍ.

وَنَقَلَ غَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّهُ كَانَ طُوَالاً، جَسِيْمًا، عَظِيْمَ الهَامَةِ، أَشقَرَ، أَبْيَضَ الرَّأسِ وَاللِّحْيَةِ، عَظِيْمَ اللِّحْيَةِ.

وَقِيْلَ: كَانَ أَزْرَقَ العِيْنِ.

وَقَالَ أَبُو عَاصِمٍ: مَا رَأَيْتُ مُحَدِّثًا أَحْسَنَ وَجْهًا مِنْ مَالِكٍ.

وَقَالَ أَبُو مُصْعَب: كَانَ مَالِكٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَجْلاَهُم عَيْنًا، وَأَنْقَاهُم بَيَاضًا، وَأَتَمِّهُم طُوْلاً، فِي جَوْدَةِ بَدَنٍ.

وَقَدْ سَاقَ القَاضِي عِيَاض مِنْ وُجُوْه: حُسْنَ بَزَّةِ الإِمَامِ وَوُفُورَ تَجَمُّلِهِ.

وَقَدْ كَانَ مَالِكٌ إِمَامًا فِي نَقْدِ الرِّجَالِ، حَافِظًا، مُجَوِّداً، مُتْقِنًا.



قـال عَتِيْقُ بـنُ يَعْقُوْبَ، سَـمِعْتُ مَالِـكًا يَقُـوْلُ: حَدَّثَنَا ابْنُ شِـهَابٍ بِبِضْعَـةٍ وَأَرْبَعِيْنَ حَدِيْثًا، ثُمَّ قَـالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ، فَأَعَدتُ عَلَيْهِ مِنْهَا أَرْبَعِيْنَ حَدِيْثًا.

قَالَ الشَّـافِعِيُّ: قَالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ:أَقَمْتُ عِنْدَ مَالِكٍ ثَلَاثَ سِـنِيْنَ وَكَسْراً، وَسَـمِعْتُ مِنْ لَفْظِهِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ مِائَةِ حَدِيْثٍ، فَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا حَـدَّثَ عَنْ مَالِكٍ امْتَلأَ مَنْزِلُهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الكُوْفِيِّيْنَ، لَمْ يَجِئْهُ إِلاَّ اليَسِيْرُ.

وَقَـالَ ابْنُ أَبِي عُمَـرَ العَدَنِيُّ: سَـمِعْتُ الشَّـافِعِيَّ يَقُوْلُ: مَالِكٌ مُعَلِّمِي، وَعَنْهُ أَخَذْتُ العِلْمَ.

قَالَ ابْنُ مَهْدِيٍّ: أَئِمَّةُ النَّاسِ فِـي زَمَانِهِم أَرْبَعَةٌ: الثَّوْرِيُّ، وَمَالِكٌ، وَالأَوْزَاعِيُّ، وَحَمَّادُ بْـنُ زَيْدٍ. وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَعقَلَ مِنْ مَالِكٍ.

وَعَنْ مَالِكٍ، قَالَ: جُنَّةُ العَالِمِ: (لاَ أَدْرِي)، فَإِذَا أغفلَهَا أُصِيْبَتْ مَقَاتِله.

قَالَ الهَيْثَمُ بنُ جَمِيْلٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ ثمَانٍ وَأَرْبَعِيْنَ مَسْأَلَةً، فَأَجَابَ فِي اثْنَتَيْنِ وَثَلاَثِيْنَ مِنْهَا بِـ: لاَ أَدْرِي.

قال مَالِك سَمِعت عَبْدَ الله بنَ يَزِيْدَ بنِ هُرْمُزَ يَقُوْلُ: يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُورِّثَ جُلَسَاءهُ قَوْلَ: (لاَ أَدْرِي) حَتَّى يَكُوْنَ ذَلِكَ أَصْلاً يَفْزَعُوْنَ إِلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ: صَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ: (لاَ أَدْرِي) نِصْفُ العِلْم.





المِحْنَةُ

قَـالَ مُحَمَّـدُ بنُ جَرِيْـرٍ: كَانَ مَالِكٌ قَدْ ضُرِبَ بِالسِّـيَاطِ، وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِ ذَلِكَ، فَحَدَّثَنِي العَبَّاسُ بنُ الوَلِيْدِ، حَدَّثَنَا ابْـنُ ذَكْـوَانَ، عَنْ مَـرْوَانَ الطَّاطَرِيِّ: أَنَّ أَبَـا جَعْفَرٍ المنصور نَهَى مَالِـكـًا عَنِ الحَدِيْثِ: (لَيْسَ عَلَى مُسْـتَكْرَهٍ طَلاَقٌ)، ثُمَّ دَسَّ إِلَيْهِ مَنْ يَسْـأَلُهُ، فَحَدَّثَهُ بِهِ عَلَـى رُؤُوْسِ النَّاسِ، فَضَرَبَهُ بِالسِّيَاطِ.

وسُـئِلَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: مَنْ ضَـرَبَ مَالِكـًا؟ قَالَ: بَعْضُ الوُلاَةِ فِي طَلاَقِ المُكْرَهِ، كَانَ لاَ يُجِيْزُه، فَضَرَبَهُ لِذَلِكَ.

قال الوَاقِدِيُّ: لَمَّا دُعِيَ مَالِكٌ، وَشُوْوِرَ، وَسُمِعَ مِنْهُ، وَقُبِلَ قَوْلُهُ، حُسِـدَ، وَبَغَوْهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَمَّا وَلِيَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمَانَ المَدِيْنَةَ، سَعَوْا بِهِ إِلَيْهِ، وَكَثَّرُوا عَلَيْهِ عِنْدَهُ، وَقَالُوا: هو لاَ يَرَى أَيْمَانَ بَيْعَتِكُم هَذِهِ بِشَيْءٍ، وَهُوَ يَأْخُذُ بِحَدِيْثٍ رَوَاهُ عَنْ ثَابِتِ

بنِ الأَحْنَفِ فِي طَلاَقِ المُكْرَهِ: أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ عِنْدَهُ.

قَـالَ: فَغَضِبَ جَعْفَرٌ، فَدَعَا بِمَالِكٍ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَا رُفِعَ إِلَيْهِ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِتَجرِيْدِه، وَضَرْبِهِ بِالسِّيَاطِ، وَجُبذَتْ يَدُهُ حَتَّى انْخَلَعَـتْ مِنْ كَتِفِهِ، وَارتُكِـبَ مِنْهُ أَمْرٌ عَظِيْمٌ، فَـوَاللهِ مَا زَالَ مَالِكٌ بَعْدُ فِي رِفْعَةٍ وَعُلُوٍّ.

قُلْتُ: هَـذَا ثَمَرَةُ المِحْنَةِ المَحْمُوْدَةِ، أَنَّهَا تَرفَعُ العَبْدَ عِنْدَ المُؤْمِنِيْـنَ، فَالمُؤْمِنُ إِذَا امْتُحِنَ صَبَرَ وَاتَّعَظَ وَاسْـتَغْفَرَ، وَلَمْ يَتَشَـاغَلْ بِذَمِّ مَنِ انْتَقَمَ مِنْهُ، فَاللهُ حَكَمٌ مُقْسِـطٌ، ثُمَّ يَحْمَدُ اللهَ عَلَى سَلاَمَةِ دِيْنِه، وَيَعْلَمُ أَنَّ عُقُوْبَةَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ وَخَيْرٌ لَهُ.

قَـالَ أَبُو الوَلِيْدِ البَاجِـيُّ: رُوِيَ أَنَّ المَنْصُـوْرَ حَجَّ، وَأَقَادَ مَالِكًا مِنْ جَعْفَرِ بنِ سُلَيْمَانَ[١] الَّذِي كَانَ ضَرَبَه. فَأَبَى مَالِكٌ، وَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ.

(١) أقاده منه، أي سلَّمه إليه ليقتصَّ منه، لكنَّ الإمام مالك أبى أن يقتصَّ منه.



فَصْلٌ

ولِمَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رِسَـالَةٌ فِي القَـدَرِ، كَتَبَهَا إِلَى ابْنِ وَهْبٍ، وَإِسْنَادُهَا صَحِيْحٌ.

وَلَـهُ مُؤَلَّفٌ: فِي النُّجُـوْمِ وَمَنَازِلِ القَمَرِ، رَوَاهُ سُـحْنُوْنُ، عَنِ ابْنِ نَافِعِ الصَّائِغِ، عَنْه، وَلَهُ جُزْءٌ فِي التَّفْسِيْرِ، وَرِسَالَةٌ فِي الأَقْضِيَةِ مُجَلَّد، وله كِتَابُ (السِّرِّ) مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ القَاسِمِ عَنْهُ.

فَأَمَّـا مَا نَقَلَ عَنْهُ كِبَارُ أَصْحَابِهِ مِنَ المَسَـائِلِ، وَالفَتَاوَى، وَالفَوَائِدِ، فَشَيْءٌ كَثِيْرٌ.

وَمِنْ كُنُوْزِ ذَلِكَ: (المُدَوَّنَةُ)، وَ(الوَاضِحَةُ)، وَأَشْيَاء.

وَبِكُلِّ حَالٍ: فَإِلَى فِقْهِ مَالِكٍ المُنْتَهَى، فَعَامَّةُ آرَائِهِ مُسَدَّدَةٌ، وَلَو لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلاَّ حَسـمُ مَـادَةِ الحِيَلِ، وَمُرَاعَـاةُ المَقَاصِدِ، لَكَفَـاهُ، وَمَذْهَبُـهُ قَدْ مَـلأَ المَغْـرِبَ وَالأَنْدَلُـسَ، وَكَثِيْراً مِنْ



بِلاَدِ مِصْرَ، وَبَعْضَ الشَّـام، وَالِيَمَنَ، وَالسُّـوْدَانَ، وَبِالبَصْرَةِ، وَبَغْدَادَ، وَالكُوْفَةِ، وَبَعْضِ خُرَاسَانَ.

وَلَكِـنَّ هَـذَا الإِمَـامَ (الإمـام مالـك) الَّـذِي هُـوَ النَّجمُ الهَـادِي قَـدْ أَنْصَـفَ، وَقَـالَ قَـوْلاً فَصْـلاً، حَيْـثُ يَقُـوْلُ: كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِه، وَيُتْرَكُ، إِلاَّ صَاحِبَ هَذَا القَبْرِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ الشَّـافِعِيُّ: العِلْمُ يَدُوْرُ عَلَى ثَلاَثَـةٍ: مَالِكٍ، وَاللَّيْثِ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ.

قُلْتُ: بَلْ وَعَلَى سَبْعَةٍ مَعَهُم، وَهُمُ: الأَوْزَاعِيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَمَعْمَرٌ، وَأَبُو حَنِيْفَةَ، وَشُعْبَةُ، وَالحَمَّادَانِ.

وَرُوِيَ عَـنِ الأَوْزَاعِيِّ: أَنَّـهُ كَانَ إِذَا ذَكَرَ مَالِـكًا، يَقُوْلُ: عَالِمُ العُلَمَاءِ، وَمُفْتِي الحَرَمَيْنِ.



وَقَالَ أَبُو يُوْسُفَ: مَا رَأَيْتُ أَعْلَمَ مِنْ أَبِي حَنِيْفَةَ، وَمَالِكٍ، وَابْنِ أَبِي لَيْلَى.

وَذَكَـرَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَـلٍ مَالِكًا، فَقَدَّمَه عَلَـى الأَوْزَاعِيِّ، وَالثَّوْرِيِّ، وَاللَّيْـث، وَحَمَّادٍ، وَالحَكَمِ، فِي العِلْمِ. وَقَالَ: هُوَ إِمَامٌ فِي الحَدِيْثِ، وَفِي الفِقْهِ.

قَـال مَالِك: مَا أَفْتَيـتُ حَتَّى شَـهِدَ لِي سَـبْعُوْنَ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ.

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ السَّـرَّاجُ: سَمِعْتُ البُخَارِيَّ يَقُوْلُ: أَصَحُّ الأَسَانِيْدِ: مَالِكٌ، عَنْ نَافعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ.



مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ فِي السُّنَّةِ

قال مُطَرِّفُ بنُ عَبْدِ اللهِ، سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُوْلُ: سَنَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوُلاَةُ الأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَنًا، الأَخْذُ بِهَا اتِّبَاعٌ لِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتِكمَالٌ بِطَاعَةِ اللهِ، وَقُوَّةٌ عَلَى دِيْنِ اللهِ، لَيْسَ لأَحَدٍ تَغِييرُهَا وَلاَ تَبْدِيلُهَا، وَلاَ النَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا، مَنِ اهْتَدَى بِهَا، فَهُوَ مُهتَدٍ، وَمَنِ اسْتَنصَرَ بِهَا، فَهُوَ مَنْصُوْرٌ، وَمَنْ تَرَكَهَا، اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيْلِ المُؤْمِنِيْنَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى، وَأَصْلاَهُ جَهَنَّمَ، وَسَاءتْ مَصِيْرا.

وَقال إِسْحَاقَ بنَ عِيْسَى: قَالَ مَالِكٌ: أَكُلَّمَا جَاءنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ، تَرَكنَا مَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيْلُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَدَلِه؟!

وقال جَعْفَرُ بنُ عَبْدِ اللهِ: كُنَّا عِنْدَ مَالِكٍ، فَجَاءهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥]



كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَمَا وَجَدَ مَالِكٌ مِنْ شَيْءٍ مَا وَجَدَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَنَظَرَ إِلَى الأَرْضِ، وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِعُوْدٍ فِي يَدِهِ، حَتَّى عَلاَهُ الرُّحَضَاءُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَه، وَرَمَى بِالعُوْدِ، وَقَالَ: الكَيْفُ مِنْهُ غَيْرُ مَعْقُوْلٍ، وَالاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُوْلٍ، وَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَأَظُنُّكَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ. وَأَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ.

وَرَوَى: عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ فِي كِتَابِ (الرَّدِّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ) عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ نَافِعٍ، قَالَ: قَالَ مَالِكٌ: اللهُ فِي السَّمَاءِ، وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لاَ يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُوْلُ: القُرْآنُ كَلاَمُ اللهِ، وَكَلاَمُ اللهِ مِنْهُ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ شَيْءٌ مَخْلُوْقٌ.

وَرَوَى ابْنُ نَافِعٍ، عَنْ مَالِكٍ: مَنْ قَالَ: القُرْآنُ مَخْلُوْقٌ، يُجلَدُ وَيُحبَسُ.

قَالَ القَاضِي: وَقَالَ غَيْـرُ وَاحِدٍ، عَنْ مَالِكٍ: الإِيْمَان قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيْدُ وَيَنْقُصُ، وَبَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ.

***

فَصْلٌ

قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ فِي (مُسْنَدِ مَالِكٍ) بِإِسْنَادٍ صَحَّ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ: قَالَ مالك: نَشَـرَ نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عِلْمـًا كَثِيْراً أَكْثَرَ مِمَّا نَشَرَ عَنْهُ بَنُوْهُ.

وقال ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ مَالِـك: كُنْتُ آتِي نَافِعـًا، وَأَنَا غُلاَمٌ حَدِيْـثُ السِّـنِّ، فَيَنْزِلُ مِنْ دَرَجِـه، فَيَقِفُ مَعِـي، وَيُحَدِّثُنِي، وَكَانَ يَجْلِسُ بَعْدَ الصُّبْحِ فِي المَسْجِدِ، فَلاَ يَكَادُ يَأْتِيْهِ أَحَدٌ.

وقال ابْنُ وَهْب أيضا: سَـمِعْتُ مَالِـكـًا يَقُوْلُ: حَقٌّ عَلَى مَنْ طَلَبَ العِلْمَ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ وَقَارٌ، وَسَكِيْنَةٌ، وَخَشْيَةٌ.



وقال: قال مَالِك: بَلَغَنِي أَنَّهُ مَا زَهِدَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا وَاتَّقَى، إِلاَّ نَطَقَ بِالحِكْمَةِ.

وقال: قَالَ مالك: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَهَبَ يَمدَحُ نَفْسَه، ذَهَبَ بَهَاؤُهُ.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: قِيْلَ لأُخْتِ مَالِكٍ: مَا كَانَ شُغْلُ مَالِكٍ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: المُصْحَفُ والتِّلاَوَةُ.

قَالَ خَالِدُ بنُ نِزَارٍ الأَيْلِيُّ: بَعَثَ المَنْصُوْرُ إِلَى مَالِكٍ حِيْنَ قَدِمَ المَدِيْنَةَ، فَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا بِالعِرَاقِ، فَضَعْ كِتَابًا نَجْمَعُهُم عَلَيْهِ. فَوَضَعَ (المُوَطَّأَ).

قَالَ الشَّافِعِيُّ: مَا فِي الأَرْضِ كِتَابٌ فِي العِلْمِ أَكْثَرُ صَوَابًا مِنْ (مُوَطَّأِ مَالِكٍ).

قُلْتُ: هَذَا قَالَهُ قَبلَ أَنْ يُؤَلَّفَ الصَّحِيْحَانِ.

قَالَ أَبُو مُصْعَـبٍ: كَانُوا يَزْدَحِمُوْنَ عَلَى بَابِ مَالِك حَتَّى يَقْتَتِلُـوا مِـنَ الزِّحَامِ، وَكُنَّا إِذَا كُنَّا عِنْـدَهُ، لاَ يَلْتَفِتُ ذَا إِلَى ذَا، قَائِلُوْنَ بِرُؤُوْسِـهِم هَكَـذَا، وَكَانَتِ السَّـلاَطِيْنُ تَهَابُهُ، وَكَانَ يَقُوْلُ: لاَ، وَنَعَمْ، وَلاَ يُقَالُ لَهُ: مَنْ أَيْنَ قُلْتُ ذَا؟

قَالَ مُصْعَبُ بنُ عَبْدِ اللهِ فِي مَالِكٍ:

يَدَعُ الجَوَابَ فَلاَ يُرَاجَعُ هَيْبَةً
وَالسَّائِلُوْنَ نَوَاكِسُ الأَذْقَـــانِ

عِزُّ الوَقَارِ وَنُوْرُ سُلْطَانِ التُّقَى
فَهُوَ المَهِيْبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

قـال ابن مهدي: مَا رَأَيْتُ أَحَـداً أَهْيَبَ، وَلاَ أَتَمَّ عَقْلاً مِنْ مَالِكٍ، وَلاَ أَشَدَّ تَقوَىً.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: مَا نَقَلْنَا مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ، أَكْثَرُ مِمَّا تَعَلَّمْنَا مِنْ عِلْمِهِ.



وَفَاةُ مَالِكٍ

قَالَ القَعْنَبِيُّ: سَمِعْتُهُم يَقُوْلُوْنَ: عُمُرُ مَالِكٍ تِسْعٌ وَثَمَانُوْنَ سَنَةً، مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمائَةٍ.

وَقَالَ إِسْمَاعِيْلُ بنُ أَبِي أُوَيْسٍ: مَرِضَ مَالِكٌ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أَهْلِنَا عَمَّا قَالَ عِنْدَ المَوْتِ. قَالُوا: تَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: آية ٤].

تُوُفِّيَ: صَبِيْحَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنْ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ، سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمائَةٍ، فَصَلَّى عَلَيْهِ الأَمِيْرُ عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ الهَاشِمِي. وَغَسَلَهُ: ابْنُ أَبِي زَنْبَرٍ، وَابْنُ كِنَانَةَ، وَابْنُهُ يَحْيَى وَكَاتِبُهُ حَبِيْبٌ يَصُبَّانِ عَلَيْهِمَا المَاء.

قُلْتُ: وَدُفِنَ بِالبَقِيْعِ.



الإِمَامِ الشَافِعِي

مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ بنِ العَبَّاسِ بنِ عُثْمَانَ بنِ شَافِعِ بنِ السَّائِبِ بـنِ عُبَيْدِ بنِ عَبْدِ يَزِيْدَ بنِ هِشَـامِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عَبْدِمَنَافٍ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلَابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غَالِبٍ.

الإِمَـامُ، عَالِـمُ العَصْرِ، نَاصِـرُ الحَدِيْثِ، فَقِيْـهُ المِلَّةِ، أَبُو عَبْدِاللهِ القُرَشِـيُّ، ثُـمَّ المُطَّلِبِيُّ، الشَّـافِعِيُّ، المَكِّـيُّ، الغَزِّيُّ المَوْلِدِ، نَسِيْبُ رَسُـوْلِ اللهِ[1] وَابْنُ عَمِّهِ، فَالمُطَّلِبُ هُوَ أَخُو هَاشِمٍ وَالِدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

وِلِدُ الإِمَام الشافعيُّ بغَزَّةَ، وَمَاتَ أَبُوْهُ إِدْرِيْسُ شَابّـًا، فَنَشَأَ مُحَمَّـدٌ يَتِيْمـًا فِي حَجْرِ أُمِّهِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ، فَتَحَوَّلَتْ بِـهِ إِلَى مَحْتِدِهِ[2] وَهُوَ ابْنُ عَامَيْنِ، فَنَشَـأَ بِمَكَّـةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى

(١) أي أن بينه وبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبـًا، فالجد الثالث من أجداد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وهو عبدمناف) هو الجد التاسع من أجداد الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) محتده: أي أصله.



الرَّمْيِ، حَتَّى فَاقَ فِيْهِ الأَقْرَانَ، وَصَارَ يُصِيْبُ مِنْ عَشْرَةٍ أَسْهُمٍ تِسْعَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَالشَّرْعِ، فَبَرَعَ فِي ذَلِكَ، وَتَقَدَّمَ.

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الفِقْهُ، فَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ.

وَأَخَذَ العِلْمَ بِبَلَدِهِ عَنْ: مُسْلِمِ بنِ خَالِدٍ الزَّنْجِيِّ -مُفْتِي مَكَّةَ- وَأخذ عن عَمِّهِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ شَافِعٍ -وهُوَ ابْنُ عَمِّ العَبَّاسِ جَدِّ الشَّافِعِيِّ- وَسُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ، وَفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ، وَعِدَّةٍ.

وَارْتَحلَ إلى المَدِيْنَةِ وَهُوَ ابْنُ نَيِّفٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، وَقَدْ أَفْتَى وَتَأَهَّلَ لِلإِمَامَة، فَحَمَلَ عَنْ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ (المُوَطَّأَ)، عَرَضَهُ مِنْ حِفْظِهِ.

وَأَخَذَ باليَمَنِ عَنْ: مُطَرِّفِ بنِ مَازِنٍ، وَهِشَامِ بنِ يُوْسُفَ القَاضِي، وَطَائِفَةٍ.

وَببَغْدَادَ عَنْ: مُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ؛ فَقِيْهِ العِرَاقِ، وَلاَزَمَهُ، وَحَمَلَ عَنْهُ وِقْرَ بَعِيْرٍ.



وَصَنَّفَ التَّصَانِيْفَ، وَدَوَّنَ العِلْمَ، وَرَدَّ عَلَى الأَئِمَّةِ مُتَّبِعًا الأَثَرَ، وَصَنَّفَ فِي أُصُوْلِ الفِقْهِ وَفُرُوْعِهِ، وَبَعُدَ صِيْتُهُ، وَتَكَاثَرَ عَلَيْهِ الطَّلَبَةُ.

حَدَّثَ عَنْهُ: الحُمَيْدِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلاَّمٍ، وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، وَالبُوَيْطِيُّ، وَأَبُو ثَوْرٍ، وَعَبْدُ العَزِيْزِ المَكِّيُّ صَاحِبُ (الحَيْدَةِ) وَإِسْحَاقُ بنُ رَاهْوَيْه، وَالرَّبِيْعُ بنُ سُلَيْمَانَ المُرَادِيُّ، وَالرَّبِيْعُ بنُ سُلَيْمَانَ الجِيْزِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ الحَكَمِ، وَخَلْقٌ سِوَاهُم.

وَقَدْ أَفْرَدَ الدَّارَقُطْنِيُّ كِتَابَ (مَنْ لَهُ رِوَايَةٌ عَنِ الشَّافِعِيِّ) فِي جُزْأَيْنِ، وَصَنَّفَ الكِبَارُ فِي مَنَاقِبِ هَذَا الإِمَامِ، قَدِيْمًا وَحَدِيْثًا، وَنَالَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْهُ غَضًّا، فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلاَّ رِفْعَةً وَجَلاَلَةً، وَلاَحَ لِلْمُنْصِفِيْنَ أَنَّ كَلاَمَ أَقْرَانِهِ فِيْهِ بِهَوَىً، وَقَلَّ مَنْ بَرَّزَ فِي الإِمَامَةِ وَرَدَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ إِلاَّ وَعُودِيَ -نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الهَوَى- وَهَذِهِ الأَوْرَاقُ تَضِيقُ عَنْ مَنَاقِبِ هَذَا السَّيِّدِ.



فَأَمَّا جَدُّهُمُ السَّائِبُ المُطَّلِبِيُّ، فَكَانَ مِنْ كُبَرَاءِ مَنْ حَضَرَ بَدْراً مَعَ الجَاهِلِيَّةِ، فَأُسِرَ يَوْمَئِذٍ، وَكَانَ يُشَبَّهُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ فَدَى نَفْسَهُ، أَسْلَمَ.

وَابْنُهُ شَافِعُ بن السائب: لَهُ رُؤْيَةٌ، وَهُوَ مَعْدُوْدٌ فِي صِغَارِ الصَّحَابَةِ[١] وَوَلَدُهُ عُثْمَانُ: تَابِعِيٌّ، لَا أَعْلَمُ لَهُ كَبِيْرَ رِوَايَةٍ.

قَالَ المُزَنِيُّ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ وَجْهاً مِنَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ! وَكَانَ رُبَّمَا قَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَلاَ يَفْضُلُ عَنْ قَبْضَتِهِ.

قال إِبْرَاهِيْمَ بنِ بُرَانَةَ: كَانَ الشَّافِعِيُّ جَسِيماً، طُوَالاً، نَبِيْلاً.

قَالَ الرَّبِيعُ المُؤَذِّنُ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: كُنْتُ أَلْزَمُ الرَّمْيَ حَتَّى كَانَ الطَّبِيْبُ يَقُوْلُ لِي: أَخَافُ أَنْ يُصِيبَكَ السِّلُّ مِنْ كَثْرَةِ وُقُوفِكَ فِي الحَرِّ.

---

(١) قال البيهقي: السائب بن عُبيد صحابي، وولده شافع صحابي.



قَالَ: وَكُنْتُ أُصِيبُ مِنَ العَشَرَةِ تِسْعَةً[١].

وَقَالَ عَمْرُو بنُ سَوَّادٍ: قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ: كَانَتْ نَهْمَتِي فِي الرَّمْيِ، وَطَلَبِ العِلْمِ، فَنِلْتُ مِنَ الرَّمْيِ حَتَّى كُنْتُ أُصِيبُ مِنْ عَشْرَةٍ عَشْرَةً، وَسَكَتَ عَنِ العِلْمِ.

فَقُلْتُ: أَنْتَ -وَاللهِ- فِي العِلْمِ أَكْبَرُ مِنْكَ فِي الرَّمْيِ.

قَالَ الحُمَيْدِيُّ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: كُنْتُ يَتِيْمًا فِي حَجْرِ أُمِّي، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَا تُعْطِينِي لِلْمُعَلِّمِ، وَكَانَ المُعَلِّمُ قَدْ رَضِيَ مِنِّي أَنْ أَقُوْمَ عَلَى الصِّبْيَانِ إِذَا غَابَ، وَأُخَفِّفَ عَنْهُ.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ فِي الأَكْتَافِ وَالعِظَامِ، وَكُنْتُ أَذْهَبُ إِلَى الدِّيْوَانِ، فَأَسْتَوْهِبُ الظُّهُوْرَ، فَأَكْتُبُ فِيْهَا.

قَالَ الحُمَيْدِي: قال الشَّافِعِي: كَانَ مَنْزِلُنَا بِمَكَّةَ فِي شِعْبِ الخَيْفِ، فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى العَظْمِ يَلُوْحُ، فَأَكْتُبُ فِيْهِ الحَدِيْثَ،

(١) كان الشافعيُّ في صِباه مولعًا بالرمي بالقوس والسهم، حتى فاق أقرانه في ذلك.



أَوِ المَسْــأَلَةَ، وَكَانَتْ لَنَا جَرَّةٌ قَدِيْمَةٌ، فَإِذَا امْتَلأَ العَظْمُ طَرَحْتُه فِي الجَرَّةِ.

قَالَ المُزَنِي: سَمِعت الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: حَفِظْتُ القُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِيْنَ، وَحَفِظْتُ المُوَطَّأَ وَأَنَا ابْنُ عَشْر.

قال الرَّبِيْع بنُ سُلَيْمَانَ: وُلِدَ الشَّافِعِيُّ يَوْمَ مَاتَ أَبُو حَنِيْفَة، رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى.

قَــالَ ابْنُ عَبْدِ الحَكَم: سَــمِعْتُ الشَّــافِعِيَّ يَقُــوْلُ: قرأْتُ القُرْآنَ عَلَى إِسْمَاعِيْلَ بنِ قُسْطَنْطِيْنَ.

قال الحُمَيْدِي: قال مُسْـلِم بن خَالِدٍ الزَّنْجيُّ لِلشَّــافِعِيِّ: أَفْــتِ يَا أَبَــا عَبْــدِ اللهِ، فَقَــدْ -وَاللهِ- آنَ لَــكَ أَنْ تُفْتِي. وكان الشافعيُّ ابْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةَ!

قال الرَّبِيْعُ: قَالَ الشَّــافِعِيُّ: لأَنْ يَلقَى اللهَ العَبْدُ بِكُلِّ ذَنْبٍ إِلاَّ الشِّرْكَ خَيرٌ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الأَهوَاء.



قال ابْنُ عَبْدِ الحَكَم، سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي الكَلَامِ(١) مِنَ الأَهْوَاءِ لَفَرُّوا مِنْهُ، كَمَا يفِرُّوْنَ مِنَ الأَسَد.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنَ الشَّافِعِي.

وقَالَ يُوْنُسُ الصَّدَفِيُّ: مَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنَ الشَّافِعِيِّ، نَاظَرْتُهُ يَوْماً فِي مَسْأَلَةٍ، ثُمَّ افْتَرَقْنَا، وَلَقِيَنِي، فَأَخَذَ بِيَدِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا مُوْسَى، أَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ نَكُوْنَ إِخْوَاناً وَإِنْ لَمْ نَتَّفِقْ فِي مَسْأَلَة؟ قُلْتُ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عَقْلِ هَذَا الإِمَامِ، وَفقهِ نَفْسِهِ، فَمَا زَالَ النُّظَرَاءُ يَخْتَلِفُوْنَ.

قَالَ مَعْمَرُ بنُ شَبِيْب: سَمِعْتُ المَأْمُوْنَ يَقُوْلُ: قَدِ امتَحَنْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِدْرِيْسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَوَجَدْتُهُ كَامِلا.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ ابن بِنْتِ الشَّافِعِيِّ: سَمِعْتُ أَبِي وَعَمِّي يَقُوْلَانِ: كَانَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ إِذَا جَاءهُ شَيْءٌ مِنَ التَّفْسِيْرِ وَالفُتْيَا، التَفَتَ إِلَى الشَّافِعِيِّ، فَيَقُوْلُ: سَلُوا هَذَا.

---

(١) يعني عِلْم الكلام.



وَقَالَ سُـوَيْدُ بنُ سَعِيْدٍ يَقُوْلُ: كُنْتُ عند سُفْيَانَ بن عُيينة، فَجَـاءَ الشَّـافِعِيُّ، فَسَـلَّمَ وَجَلَسَ، فَـرَوَى ابْنُ عُيَيْنَـةَ حَدِيْثًـا رَقِيقـًا، فَغُشِيَ عَلَى الشَّافِعِي.

فَقِيْلَ لسُفيان: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَاتَ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ، فَقَالَ سُفيان: إِنْ كَانَ مَاتَ، فَقَدْ مَاتَ أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِه.

قال الرَّبِيْع: سَمِعْتُ الشَّـافِعِيَّ وَسُئِلَ عَنِ القُرْآنِ؟ فَقَالَ: أُفٍّ أُفٍّ، القُـرْآنُ كَلاَمُ اللهِ، مَنْ قَالَ: مَخْلُوْقٌ فَقَدْ كَفَر. وهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيْحٌ.

قال الرَّبِيْعُ، سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: قِرَاءةُ الحَدِيْثِ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةِ التَّطَوُّعِ.

وَقَالَ: طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةِ النَّافلَة.

قال المُزَنِيُّ: سَـمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ، عَظُمَـتْ قِيْمَتُهُ، وَمَنْ تَكَلَّمَ فِـي الفِقْهِ، نَمَا قَدْرُهُ، وَمَنْ كَتَبَ

الحَدِيْـثَ، قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَـنْ نَظَرَ فِي اللُّغَـةِ، رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الحِسَابِ، جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ، لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُه.

قَالَ الرَّبِيْعُ: سَـمِعْتُ الشَّـافِعِيَّ يَقُوْلُ: المِـرَاءُ فِي الدِّيْنِ يُقَسِّي القَلْبَ، وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ.

وقال الرَّبِيْع أيضـًا: سَـمِعْتُ الشَّـافِعِيَّ يَقُوْلُ: وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْمَ -يَعْنِي كُتُبَه- عَلَى أَنْ لاَ يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ.

وقَالَ حَرْمَلَةُ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أُعَلِّمُهُ، تَعَلَّمَهُ النَّاسُ، أُوْجَرُ عَلَيْهِ وَلاَ يَحْمَدُونِي.

قال عَبْدُ الله بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل: سَمعْتُ مُحَمَّدَ بنَ دَاوُدَ يَقُوْلُ: لَمْ يُحفَظْ فِي دَهْرِ الشَّـافِعِيِّ كُلِّه أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي شَـيءٍ مِنَ الأَهْوَاءِ، وَلاَ نُسِبَ إِلَيْهِ، وَلاَ عُرِفَ بِهِ، مَعَ بُغْضِهِ لأَهْلِ الكَلاَمِ وَالبِدَعِ.



قال الشَّافِعِي: حُكْمِي فِي أَهْلِ الكَلاَمِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالجَرِيْدِ، وَيُحْمَلُوا عَلَى الإِبِلِ، وَيُطَافُ بِهِم فِي العَشَائِرِ، يُنَادَى عَلَيْهِم: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الكَلاَمِ.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَشْعَرِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيُّ: قَالَ الشَّافِعِيُّ: مَذْهَبِي فِي أَهْلِ الكَلاَمِ تَقْنِيعُ رُؤُوْسِهِم بِالسِّيَاطِ، وَتَشْرِيدُهُمْ فِي البِلاَدِ.

قُلْتُ: لَعَلَّ هَذَا مُتَوَاتِرٌ عَنِ الإِمَامِ.

قَالَ المُزَنِيُّ: كَانَ الشَّافِعِيُّ يَنَهَى عَنِ الخَوْضِ فِي الكَلاَمِ.

قال مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاق بنِ خُزَيْمَةَ: سَمِعْتُ الرَّبِيْعَ يَقُوْلُ: لَمَّا كَلَّمَ الشَّافِعِيَّ حَفْصٌ الفَرْدُ، فَقَالَ حَفْصٌ: القُرْآنُ مَخْلُوْقٌ. فَقَالَ لَهُ الشَّافِعِيُّ: كَفَرْتَ بِاللهِ العَظِيْمِ.

قال البُوَيْطِي: سَأَلْتُ الشَّافِعِيَّ: أُصَلِّي خَلْفَ الرَّافِضِيِّ؟



قَـالَ: لاَ تُصَلِّ خَلْفَ الرَّافِضِيِّ، وَلاَ القَـدَرِيِّ، وَلاَ المُرْجِئِ. فقُلْـتُ: صِفْهُمْ لنَا. قَالَ: مَنْ قَالَ: الإِيْمَانُ قَوْلٌ، فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَيْسَا بِإِمَامَيْنِ، فَهُوَ رَافِضِيٌّ، وَمَنْ جَعَلَ المَشِيْئَةَ إِلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ قَدَرِيٌّ.

قال الرَّبِيْع: قَالَ لِيَ الشَّافِعِيُّ: لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَضَعَ عَلَى كُلِّ مُخَالـفٍ كِتَابًا لَفَعَلْـتُ، وَلَكِنْ لَيْسَ الكَلاَمُ مِنْ شَـأْنِي، وَلاَ أُحِبُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْء.

قُلْتُ: هَذَا النَّفَسُ الزَّكِيُّ مُتَوَاتِرٌ عَنِ الشَّافِعِيِّ.

قال عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ: سَـمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: قَالَ الشَّـافِعِيُّ: أَنْتُمْ أَعْلَـمُ بِالأَخْبَارِ الصِّحَاحِ مِنَّا، فَـإِذَا كَانَ خَبَرٌ صَحِيْحٌ، فَأَعلِمْنِي حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ حَرْمَلَةُ: قَالَ الشَّافِعِيُّ: كُلُّ مَا قُلْتُهُ فَكَانَ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِلاَفُ قَوْلِي مِمَّا صَحَّ، فَهُوَ أَوْلَى، وَلاَ تُقَلِّدُوْنِي.



وقَـالَ لَهُ رَجُل: تَأْخُذُ بِهَذَا الحَدِيْثِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ فَقَالَ: مَتَـى رَوَيْـتُ عَنْ رَسُـوْلِ اللهِ حَدِيْثًا صَحِيْحًا وَلَـمْ آخُذْ بِهِ، فَأُشْهِدُكُم أَنَّ عَقْلِي قَدْ ذَهَب.

وَقَـالَ الحُمَيْدِيُّ: رَوَى الشَّـافِعِيُّ يَوْمـًا حَدِيْثًا، فَقُلْتُ: أَتَأْخُـذُ بِـهِ؟ فَقَالَ: هل رَأَيتَنِـي خَرَجْتُ مِنْ كَنِيْسَـةٍ، أَوْ عَلَيَّ زِنَّـارٌ، حَتَّـى إِذَا سَـمِعْتُ عَـنْ رَسُـوْلِ اللهِ -صَلَّـى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَدِيْثًا لاَ أَقولُ بِه؟!

وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ: إِذَا صَحَّ الحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي، وَإِذَا صَحَّ الحَدِيْث، فَاضْرِبُوا بِقَولِي الحَائِطَ.

قال الرَّبِيْعُ بنُ سُلَيْمَانَ: كَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ جزَّأَ اللَّيْلَ: فَثُلُثُهُ الأَوَّلُ يَكْتُبُ، وَالثَّانِي يُصَلِّي، وَالثَّالِثُ يَنَامُ.

قُلْتُ: أَفْعَالُهُ الثَّلاَثَةُ عِبَادَةٌ بِالنِّيَّة.

قال الكَرَابِيْسِيُّ: بِتُّ مَعَ الشَّافِعِيِّ لَيْلَةً، فَكَانَ يُصَلِّي نَحْوَ

ثُلُثِ اللَّيْلِ، فَمَا رَأَيْتُهُ يَزِيْدُ عَلَى خَمْسِيْنَ آيَةً، فَإِذَا أَكْثَرَ فَمائَةِ آيَةٍ، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بآيَةِ رَحمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ اللهَ، وَلاَ بآيَةِ عَذَابٍ إِلاَّ تَعوَّذَ، وَكَأَنَّمَا جُمِعَ لَهُ الرَّجَاءُ وَالرَّهْبَةُ جَمِيْعاً.

قَالَ الرَّبِيْعُ بنُ سُلَيْمَانَ مِنْ طَرِيْقَيْنِ عَنْهُ، بَلِ أَكْثَرَ: كَانَ الشَّافِعِيُّ يَخْتِمُ القُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سِتِّيْنَ خَتْمَةً.

قَالَ عَمْرُو بنُ سَوَّادٍ: كَانَ الشَّافِعِيُّ أَسْخَى النَّاسِ عَلَى الدِّيْنَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالطَّعَامِ.

وقال أَبُو ثَوْر: قَلَّ مَا كَانَ يُمْسِكُ الشَّافِعِيُّ الشَّيْءَ مِنْ سَمَاحَتِه.

وقَالَ الرَّبِيْعُ: أَخَذَ رَجُلٌ بِرِكَابِ الشَّافِعِيِّ، فَقَالَ لِي: أَعْطِهِ أَرْبَعَةَ دَنَانِير.

وقال المُزَنِي: كُنْتُ مَعَ الشَّافِعِيِّ يَوْماً، فَخَرَجْنَا فَإِذَا بِرَجُلٍ يَرْمِي بِقَوسٍ عَرَبِيَّةٍ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ، وَكَانَ



حَسَنَ الرَّمْي، فَأَصَابَ بِأَسْهُم. فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: أَحْسَنْتَ، وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَعْطِهِ ثَلاَثَةَ دَنَانِيْر.

وَقَالَ الرَّبِيْعُ: كَانَ الشَّافِعِيُّ مَارّاً بِالحَذَّائِيْنَ، فَسَقَطَ سَوْطُهُ، فَوَثَبَ غُلاَمٌ، وَمَسَحَهُ بِكُمِّهِ، وَنَاوَلَهُ، فَأَعْطَاهُ سَبْعَةَ دَنَانِيْر.

قَالَ الرَّبِيْعُ: تَزَوَّجْتُ، فَسَأَلَنِي الشَّافِعِيُّ كَمْ أَصْدَقْتَهَا؟ قُلْتُ: ثَلاَثِيْنَ دِيْنَاراً، عَجَّلْتُ مِنْهَا سِتَّةً، فَأَعْطَانِي أَرْبَعَةً وَعِشْرِيْنَ دِيْنَارا.

قال الرَّبِيْع: مَشَيْتُ خَلْفَ الشافعي، فَنَاولَهُ إِنْسَانٌ رُقْعَةً يَقُوْلُ فِيْهَا: إِنَّنِي بَقَّالٌ، رَأْسُ مَالِي دِرْهَم، وَقَدْ تَزَوَّجْتُ، فَأَعِنِّي. فَقَالَ: يَا رَبِيْعُ، أَعْطِهِ ثَلاَثِيْنَ دِيْنَاراً. فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا يَكْفِيْهِ عَشَرَةُ دَرَاهِم.

فَقَالَ: وَيْحَكَ! وَمَا يَصْنَعُ بِثَلاَثِيْن ديناراً؟ أَفِي كَذَا، أَمْ فِي

كَذَا -وأخذ يَعُدُّ مَا يَصْنَعُ فِي جِهَازِه- ثم قال: أَعْطِه.

وروى الزُّبَيْرُ بنُ سُـلَيْمَانَ القُرَشِـيُّ، عَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: خَرَجَ هَرْثَمَةُ، فَأَقْرَأَنِي سَـلاَمَ أَمِيرِ المُؤْمِنِيْـنَ هَارُوْنَ، وَقَالَ: قَد أَمَرَ لَكَ بِخَمْسَةِ آلاَفِ دِيْنَارٍ.

قَالَ القُرشـي: فَحَمَـلَ إِلَيْهِ المَـالَ، فأخذ رِقَاعـاً، فَصَرَّ صُرراً، وَفَرَّقَهَا فِي القُرَشِيِّيْن، حَتَّى مَا رَجعَ إِلَى بَيْتِهِ إِلاَّ بِأَقَلَّ مِنْ مائَةِ دِيْنَار.

قَـالَ ابْنُ عَبْدِ الحَكَم: كَانَ الشَّـافِعِيُّ أَسْـخَى النَّاسِ بِمَا يَجِـدُ، وَكَانَ يَمُرُّ بنَا، فَإِنْ وَجَدَنِـي، وَإِلاَّ قَالَ: قُولُوا لمُحَمَّدٍ إِذَا جَاءَ: يَأْتِي المَنْزِلَ، فَإِنِّي لاَ أَتَغَدَّى حَتَّى يَجِيء.

وعن الشَّـافِعِيِّ أَنَّه قـال: بِئْسَ الزَّادُ إِلَى المَعَـادِ العُدْوَانُ عَلَى العِبَاد.



قَالَ يُوْنُسُ الصَّدَفِيُّ: قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ: لَيْسَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّاسِ سَبِيْلٌ، فَانْظُرِ الَّذِي فِيْهِ صَلَاحُك فَالْزَمْه.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ قَالَ: إِذَا خِفْتَ عَلَى عَمَلِكَ العُجْبَ، فَاذكُرْ رِضَى مَنْ تَطْلُبُ، وَفِي أَيِّ نَعِيْم تَرْغَبُ، وَمِنْ أَيِّ عِقَابٍ تَرْهَبُ، فَمَنْ فَكَّرَ فِي ذَلِكَ، صَغُرَ عِنْدَهُ عَمَلُه.

وقد كتب عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ[(١)] إِلَى الشَّافِعِيِّ وَهُوَ شَابٌّ أَنْ يَضَعَ لَهُ كِتَابًا فِيْهِ مَعَانِي القُرْآنِ، وَيَجْمَعَ قَبُوْلَ الأَخْبَارِ، وَحُجَّةَ الإِجْمَاعِ، وَبيَانَ النَّاسِخِ وَالمَنْسُوخِ، فَوَضَعَ لَهُ كِتَابَ الرِّسَالَةِ.

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ: مَا أُصَلِّي صَلاَةً إِلاَّ وَأَنَا أَدْعُو لِلشَّافِعِيِّ فِيْهَا.

---

(١) عبد الرحمن بن مهدي إمام مُحدِّث، يُعَدُّ من أكبر الحُفَّاظ ومن أجلِّ العلماء، وهو في طبقة شيوخ الإمام الشافعي.



وقَالَ الحَارِثُ بنُ سُرَيْج: سَـمِعْتُ يَحْيَى القَطَّانَ يَقُوْلُ: أَنَا أَدْعُو اللهَ لِلشَّافِعِيِّ، أَخُصُّهُ بِه.

وقَالَ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ: سِـتَّةٌ أَدْعُو لَهُمْ سَـحَراً، أَحَدُهُمُ: الشَّافِعِي.

وقَالَ إنِّي لأَدْعُو لِلشَّافعِيِّ مُنْذُ أَرْبَعينَ سَنَةٍ فِي صَلاَتِي.

وَقَـالَ عَبْـدُ اللهِ بـنُ أَحْمَـدَ بـن حنبـل: قُلْتُ لأَبِـي: أَيَّ رَجُـلٍ كَانَ الشَّـافِعِيُّ، فَإِنِّي سَـمِعتُكَ تُكْثِرُ مِـنَ الدُّعَاءِ لَهُ؟ قَالَ: يَا بُنِيَّ، كَانَ كَالشَّـمْسِ لِلدُّنْيَـا، وَكَالعَافِيَةِ لِلنَّاسِ، فَهَلْ لِهَذَيْنِ مِنْ خَلَفٍ، أَوْ مِنْهُمَا عِوَض؟

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: مَا رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ (أحمد بن حنبل) يَمِيْلُ إِلَى أَحَدٍ مَيْلَهُ إِلَى الشَّافِعِي.

قَـالَ قُتَيْبَةُ بنُ سَـعِيْد: مَاتَ الثَّـوْرِيُّ وَمَاتَ الـوَرَعُ، وَمَاتَ الشَّافِعِيُّ وَمَاتَتِ السُّنَنُ، وَيَمُوْتُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، وَتَظْهَرُ البِدَع.



قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَـل: إِنَّ اللهَ يُقَيِّضُ لِلنَّاسِ فِي رَأْسِ كُلِّ مائَةٍ مَنْ يُعلِّمُهُمُ السُّنَنَ، وَيَنْفِي عَنْ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكَذِبَ.

ثم قـال أحمد: فَنَظَرنا، فَإِذَا فِي رَأْسِ المائَةِ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ، وَفِي رَأس المائَتَيْنِ الشَّافِعِي.

قَالَ الشـافعي: إِذَا رَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أَصْحَـابِ الحَدِيْثِ، فَكَأَنِّـي رَأَيْـتُ رَجُلاً مِـنْ أَصْحَـابِ النَّبِيِّ -صَلَّـى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَزَاهُمُ اللهُ خَيْراً، هُمْ حَفِظُوا لَنَا الأَصْلَ، فَلَهُمْ عَلَيْنَا الفَضْل.

قال أبو زُرْعَة: مَا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ حَدِيْثٌ فِيْهِ غَلَط.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ: مَا أَعْلَمُ لِلشَّافِعِيِّ حَدِيْثًا خَطأً.

قُلْـتُ: هَذَا مِنْ أَدَلِّ شَـيْءٍ عَلَـى أَنَّهُ ثِقَةٌ، حُجَّـةٌ، حَافِظٌ، وَنَاهِيْكَ بِقَوْلِ مِثْلِ هَذَيْنِ.

وَقَـدْ صَنَّفَ الحَافِظُ أَبُـو بَكْرٍ الخَطِيْـبُ كِتَابًا فِي ثُبُوتِ الاحْتِجَاجِ بِالإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، وَمَا تَكَلَّمَ فِيْهِ إِلاَّ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ بِحَالِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الكَلاَمُ البَاطِلُ مِنْهُم مُوْجِبًا لاِرْتِفَاعِ شَأْنِهِ، وَعُلُوِّ قَدْرِهِ، وَتِلْكَ سُـنَّةُ اللهِ فِـي عِبَادِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: آية ٦٩].

قال أَحْمَد بنُ حنبل: كَانَ الشَّافِعِيُّ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ.

وقال يُوْنُس بن عَبْدِ الأَعْلَى: مَا كَانَ الشَّافِعِيُّ إِلاَّ سَاحِراً، كَأَنَّ أَلْفَاظَـهُ سُـكَّر، وَكَانَ قَدْ أُوتِـيَ عُذُوبَةَ مَنْطِقٍ، وَحُسْـنَ بَلاغَةٍ، وَفَرْطَ ذَكَاءٍ، وَسَيَلاَنَ ذِهْنٍ، وَكَمَالَ فَصَاحَةٍ، وَحُضُوْرَ حُجَّةٍ.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ صَالِح: كَانَ الشَّافِعِيُّ إِذَا تَكَلَّمَ، كَأَنَّ صَوتَهُ صَوْتُ صَنْجٍ وَجَرَسٍ، مِنْ حُسْنِ صَوْتِه.



قَـالَ أَبُو نُعَيْـم بنُ عَدِيٍّ الحَافِـظُ: سَـمِعْتُ الرَّبِيْعَ مرَارًا يَقُوْلُ: لَوْ رَأَيْتَ الشَّافِعِيَّ وَحُسْنَ بيَانه، وَفصَاحته، لَعَجبْتَ، وَلَوْ أَنَّهُ أَلَّفَ هَذِهِ الكُتُبَ عَلَى عَرَبِيَّتِهِ الَّتِي كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَعَنَا فِـي المُنَاظَرَة، لَمْ نَقْـدِرْ عَلَى قِرَاءةِ كُتُبِـه لِفَصَاحتِهِ وَغَرَائِبِ أَلفَاظِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي تَأْلِيفِهِ يُوَضِحُ لِلْعَوَامِّ.

وَقَالَ الرَّبِيْعُ بنُ سُـلَيْمَانَ: كَانَ لسَـان الشَّـافِعِي أَكْبَرُ مِنْ كُتُبِهِ، لَوْ رَأَيتُمُوهُ، لَقُلْتُمْ إِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ كُتُبُهُ.

وقال عَبْـد المَلِك بن هِشَـام اللُّغَوِي: طَالَتْ مُجَالَسَـتُنَا لِلشَّافِعِيِّ، فَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ لَحْنَةً قَط.

قُلْتُ: أَنَّى يَكُوْنُ ذَلِكَ وَبِمِثْلِهِ فِي الفَصَاحَة يُضْرَبُ المَثَلُ، كَانَ أَفْصَحُ قُرَيْشٍ فِي زَمَانِهِ، وَكَانَ مِمَّا يُؤْخَذُ عَنْهُ اللُّغَةُ.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ أَبِي سُـرَيْجٍ الرَّازِيُّ: مَا رَأَيْـتُ أَحدًا أَفْوَهَ، وَلاَ أَنْطَقَ مِنَ الشَّافِعِي.



وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ: أَخَذْتُ شِعْرَ هُذَيْلٍ عَنِ الشَّافِعِي.

وَقَـالَ الزُّبَيْرُ بنُ بكَّارٍ: أَخَذْتُ شِـعْرَ هُذَيْلٍ وَوقَائِعهَا عَنْ عَمِّي مُصْعَبِ بنِ عَبْدِ اللهِ، وَقَالَ: أَخَذْتُهَا مِنَ الشَّافِعِيِّ حِفْظًا.

قَـالَ ابْنُ عَبْدِ الحَكَم: مَا رَأَيْتُ الشَّـافِعِيَّ يُنَاظِرُ أَحداً إِلاَّ رَحِمْتُهُ، وَلَوْ رَأَيْتَ الشَّافِعِيَّ يُنَاظِرُكَ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَبُعٌ يَأْكُلُكَ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ الحُجَج.

وَعَنْ هَارُونَ بنِ سَـعِيْدٍ الأَيْلِيِّ قَالَ: لَوْ أَنَّ الشَّـافِعِيَّ نَاظَرَ عَلَى أَنَّ هَذَا العَمُوْدَ الحَجَرَ خَشَـبٌ، لَغَلَـبَ؛ لاِقْتِدَارِهِ عَلَى المُنَاظَرَة.

قَالَ ابْـنَ وَارَة: قَدِمْتُ مِنْ مِصْرَ، فَأَتَيْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، فَقَالَ لِي: كَتَبْتَ كُتُبَ الشَّـافِعِيِّ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَرَّطْتَ، مَا عَرَفْنَا العُمُوْمَ مِنَ الخُصُوصِ، وَنَاسِخَ الحَدِيْثِ مِنْ مَنْسُوخِهِ حَتَّى جَالَسْنَا الشَّافِعِيَّ.



قَالَ: فَحَمَلَنِي ذَلِكَ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى مِصْرَ، فَكَتَبْتُهَا.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقُوبَ الفَرَجِيُّ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بنَ المَدِيْنِيِّ يَقُوْلُ: عَلَيْكُمْ بِكُتُبِ الشَّافِعِي.

قُلْتُ: وَمِنْ بَعْضِ فُنُونِ هَذَا الإِمَامِ الطِّبُّ، فقد كَانَ يَدْرِيهِ.

قال الرَّبِيْع: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: لاَ أَعْلَمُ عِلْماً بَعْدَ الحَلاَلِ وَالحَرَامِ، أَنْبَلَ مِنَ الطِّبِّ، إِلاَّ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ غَلَبُوْنَا عَلَيْهِ.

وقَالَ مُصْعَبُ بنُ عَبْدِ الله: مَا رَأَيْتُ أَحداً أَعْلَمَ بِأَيَّامِ النَّاسِ مِنَ الشَّافِعِي.

وقَالَ يُوْنُسُ الصَّدَفِيُّ: كَانَ الشَّافِعِيُّ إِذَا أَخَذَ فِي أَيَّامِ النَّاسِ، قُلْتُ: هَذِهِ صِنَاعَتُهُ.

وَنَقَلَ الإِمَامُ ابْنُ سُرَيْجٍ عَنْ بَعْضِ النَّسَّابِيْنَ، قَالَ: كَانَ الشَّافِعِيُّ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالأَنْسَابِ، لَقَدِ اجْتَمَعُوا مَعَهُ لَيْلَةً،

فَذَاكَرَهُم بِأَنسَابِ النِّسَاءِ إِلَى الصَّبَاحِ، وَقَالَ: أَنسَابُ الرِّجَالِ يَعْرِفُهَا كُلُّ أَحَد!

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: مَا أَرَدْتُ بِهَا -يَعْنِي: بالعَرَبِيَّةَ وَالأَخْبَارَ- إِلاَّ الاستِعَانَةِ عَلَى الفِقْه.

قَالَ يُونُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى: مَا رَأَيْتُ أَحَداً لَقِيَ مِنَ السُّقْم مَا لَقِيَ الشَّافِعِيُّ، فَدَخَلْتُ عَلَيْه، فَقَالَ: اقرَأْ مَا بَعْدَ العِشْرِيْنَ وَالمائَةِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ، فقرأْتُ، فَلَمَّا قُمْتُ، قَالَ: لاَ تَغْفَلْ عَنِّي فَإِنِّي مَكْرُوبٌ.

قَالَ يُونُسُ: عَنَى بِقِرَاءتِي مَا لَقِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُه.

قال المُزَنِي: دَخَلْتُ عَلَى الشَّافِعِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَصْبَحْتُ مِنَ الدُّنْيَا رَاحِلاً، وَلإِخْوَانِي



مُفَارِقًا، وَلِسُوءِ عَمَلِي مُلاَقِيًا، وَعَلَى اللهِ وَارِداً، مَا أَدْرِي رُوْحِي تَصِيرُ إِلَى جَنَّةٍ فَأُهَنِّيْهَا، أَوْ إِلَى نَارٍ فَأُعَزِّيْهَا، ثُمَّ بَكَى وَأَنْشَأَ يَقُوْلُ:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعَلْتُ رَجَائِي دُوْنَ عَفوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
تَجُوْدُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ الأَصَمُّ: حَدَّثَنَا الرَّبِيْعُ بنُ سُلَيْمَانَ: دَخَلْتُ عَلَى الشَّافِعِيِّ وَهُوَ مريضٌ، فقال لي: بِودِّي أَنَّ جَمِيْعَ الخَلْقِ تَعَلَّمُوا هَذه الكتب -يَعْنِي: كُتُبَهُ- عَلَى أَنْ لاَ يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ.

قَالَ هَذَا يَوْمَ الأَحَدِ، وَمَاتَ يَوْمَ الخَمِيْسِ، وَانْصَرَفْنَا مِنْ

جِنَازَتِهِ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، فَرَأَيْنَا هِلاَلَ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمائَتَيْنِ، وَلَهُ نَيِّفٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ يُوْسُفَ الهَكَّارِيُّ، فِي كِتَابِ (عَقِيْدَةِ الشَّافِعِيِّ) لَهُ: قال يُوْنُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى، سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ -وَقَدْ سُئِلَ عَنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى- فَقَالَ: للهِ أَسْمَاء وَصِفَاتٌ، جَاءَ بِهَا كِتَابُهُ، وَأَخْبَرَ بِهَا نَبِيُّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ، لاَ يَسَعُ أَحداً قَامَتْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ رَدَّهَا، لأَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِهَا، وَصَحَّ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القَوْلَ بِهَا، فَإِنْ خَالَفَ ذَلِكَ بَعْدَ ثُبُوتِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ، فَهُوَ كَافِرٌ، فَأَمَّا قَبْلَ ثُبُوْتِ الحُجَّةِ، فَمَعْذُورٌ بِالجَهْلِ، لأَنَّ عِلْمَ ذَلِكَ لاَ يُدْرَكُ بِالعَقْلِ، وَلاَ بِالرَّوِيَّةِ وَالفِكْرِ، وَلاَ نُكَفِّرُ بِالجَهْلِ بِهَا أَحَداً، إِلاَّ بَعْدَ انتهَاءِ الخَبَرِ إِلَيْهِ بِهَا، وَنُثْبِتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَنَنْفِي عَنْهَا التَّشْبِيْهَ، كَمَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١]



قَالَ المُبَرِّدُ: كَانَ الشَّافِعِيُّ مِنْ أَشْعَرِ النَّاسِ، وَآدَبِ النَّاسِ، وَأَعْرَفِهِم بِالقِرَاءَات.

وقال **يُونُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى، قَالَ:** كَانَ الشَّافِعِيُّ إِذَا أَخَذَ فِي التَّفْسِيرِ، كَأَنَّهُ شَهِدَ التَّنْزِيْل.

قَالَ الزَّعْفَرَانِيُّ: قَدِمَ عَلَيْنَا الشَّافِعِيُّ بَغْدَادَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِيْنَ، فَأَقَامَ عِنْدنَا شَهْراً، ثُمَّ خَرَجَ.

وَكَانَ يَخْضِبُ بِالحِنَّاءِ، وَكَانَ خَفِيْفَ العَارِضَينِ.

قَالَ ابْنُ مَاجَهْ: جَاءَ يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ إِلَى أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ، إِذْ مرَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى بَغْلَتِهِ، فَوَثَبَ أَحْمَدُ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَتَبِعَهُ فَأَبْطَأَ، وَيَحْيَى جَالِسٌ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ يَحْيَى: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، ما هَذَا؟

فَقَالَ: دَعْ عَنْكَ هَذَا، إِنْ أَرَدْتَ الفِقْهَ فَالْزَمْ بَغْلَةِ هذا الرجل.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ العَبَّاسِ النَّسَــائِيُّ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ مَا لاَ أُحْصِيهِ وَهُوَ يَقُوْلُ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّــافِعِيُّ، ثُمَّ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحداً أَتْبَعَ لِلأَثَرِ مِنَ الشَّافِعِي.

قَالَ يُوْنُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى: سَــمِعْتُ الشَّــافِعِيَّ يَقُوْلُ: يَا يُوْنُــسَ، الاَنقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَــبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ، وَالاَنبِسَــاطُ إِلَيْهِم مَجْلَبَةٌ لقُرَنَاءِ السُّوْءِ، فَكُنْ بَيْنَ المُنْقَبِضِ وَالمُنْبَسِط.

وقال الشَّافِعِيِّ: العِلْمُ مَا نَفَعَ، لَيْسَ العِلْمُ مَا حُفِظ.

وقال: اللَّبِيبُ العَاقِلُ، هُوَ الفَطِنُ المُتَغَافِل.

وقال: لَو أَعْلَمُ أَنَّ المَاءَ البَارِدَ يُنْقِصُ مُرُوْءتِي، مَا شَرِبْتُه.

قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ مُحَمَّدٍ الشَّــافِعِيُّ: مَا رَأَيْتُ أَحداً أَحْسَــنَ صَلاَةً مِنَ الشَّافِعِيِّ، وَذَاكَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ مُسْلِمِ بنِ خَالِدٍ، وَأَخذَ مُسْــلِمُ مِــنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، وَأَخَــذَ ابْنُ جُرَيْجٍ مِــنْ عَطَاءٍ، وَأَخذَ عَطَــاءٌ مِنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَأَخَذَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ،

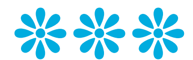


وَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقـد عـدَّد الخَطِيْبُ البغـدادي عُلُـوْمَ الإِمَامِ الشـافعي وَمنَاقبِه، وَتَعْظِيْمَ الأَئِمَّة لَهُ، وَقَال:

أَبَـى اللهُ إِلاَّ رَفْـعَـهُ وَعُـلُـوَّهُ
وَلَيْسَ لِمَا يُعْلِيهِ ذُو العَرْشِ وَاضِعُ

قلت: لاَ نُـلامُ وَاللهِ عَلَى حُبِّ هَذَا الإِمَامِ، لأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الكَمَالِ فِي زَمَانِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



الإمام أحمد بن حنبل

هُوَ: الإِمَامُ حَقًّا، وَشَيْخُ الإِسْلَامِ صِدْقًا، أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلٍ، المَرْوَزِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَعْلَامِ.

كَانَ مُحَمَّدٌ وَالِدُ أَبِي عَبْدِ اللهِ مِنْ أَجْنَادِ مَرْوَ، مَاتَ شَابًّا، لَهُ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً.

وَرُبِّيَ أَحْمَدُ يَتِيمًا، وَقِيْلَ: إِنَّ أُمَّهُ تَحَوَّلَتْ مِنْ مَرْوَ وَهِيَ حَامِلٌ بِهِ.

فَقَالَ صَالِحُ بنُ أحمد: قَالَ لِي أَبِي: وُلِدْتُ فِي رَبِيْعٍ الأَوَّلِ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّيْنَ وَمائَةٍ.

قَالَ صَالِحٌ: جِيْءَ بِأَبِي حَمَلٌ مِنْ مَرْوَ، فَمَاتَ أَبُوْهُ شَابًّا، فَوَلِيَتْهُ أُمُّهُ.



شُيُوْخه

طَلَبَ العِلْمَ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فِي العَامِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ مَالِكٌ، وَحَمَّادُ بنُ زَيْدٍ.

فَسَمِعَ مِنْ هُشَيْم بن بَشِيْرٍ فَأَكْثَرَ وَجَوَّدَ. وَمِنْ سُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ الهِلاَلِيِّ، وَالقَاضِي أَبِي يُوْسُفَ، وَجَرِيْرِ بنِ عَبْدِالحَمِيْدِ، وَأَبِي بَكْرِ بنِ عَيَّاشٍ، وَأَبِي مُعَاوِيَةَ الضَّرِيْر، وَغُنْدَرٍ، وَابْنِ عُلَيَّةَ، وَيَزِيْدَ بنِ هَارُوْن.

وسمع من وَكِيْع -فَأَكْثَرَ- وَيَحْيَى القَطَّانِ -فَبَالَغ- وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مَهْدِيٍّ، وَمُحَمَّدِ بنِ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيِّ، إِلَى أَنْ يَنْزِلَ فِي الرِّوَايَةِ عَنْ: قُتَيْبَةَ بنِ سَعِيْدٍ، وَعَلِيِّ بنِ المَدِيْنِيِّ، وَأَبِي بَكْرِ بنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَجَمَاعَةٍ من أَقْرَانه.

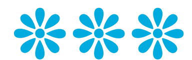
وعدد شُيُوْخِهِ الَّذِيْنَ رَوَى عَنْهُم فِي (المُسْنَدِ): مائَتَانِ وَثَمَانُوْنَ وَنَيِّفٌ.

وحَـدَّثَ عَنْهُ: البُخَارِيُّ حَدِيْثًا، وَعَنْ أَحْمَدَ بنِ الحَسَـنِ عَنْهُ حَدِيْثًا آخَرَ فِي المَغَازِي.

وَحَدَّثَ عَنْهُ: مُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ بِجُملَةٍ وَافِرَةٍ.

وَحَدَّثَ عَنْهُ أَيْضًا: وَلَـدَاهُ؛ صَالِحٌ وَعَبْدُ اللهِ، وَابْنُ عَمِّهِ؛ حَنْبَلُ بنُ إِسْحَاقَ، وَشُـيُوْخُه؛ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، والشَّافِعِيُّ، لَكِنَّ الشَّافِعِيَّ لَمْ يُسَمِّه، بَلْ قَالَ: حَدَّثَنِي الثِّقَةُ.

وَحَـدَّثَ عَنْهُ: عَلِيُّ بنُ المَدِيْنِـيِّ، وَيَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ، وَأَبُو زُرْعَةَ، وَأَبُو حَاتِمٍ، وَأُمَمٌ سِوَاهُم.





صِفَتُه

قـال مُحَمَّدُ بنُ عَبَّـاسٍ النَّحْوِي: رَأَيْتُ أَحْمَـدَ بنَ حَنْبَلٍ حَسَنَ الوَجْهِ، رَبْعَةً، يَخْضِبُ بِالحِنَّاءِ خِضَابـًا لَيْسَ بِالقَانِي، فِي لِحْيَتِهِ شَعَرَاتٌ سُـودٌ، وَرَأَيْتُ ثِيَابَهُ غِلاَظـًا بِيضـًا، وَرَأَيْتُهُ مُعْتَمّـًا، وَعَلَيْهِ إِزَارٌ.

وَقَـالَ المَـرُّوْذِيُّ: رَأَيْتُ أَبَـا عَبْـدِ اللهِ إِذَا كَانَ فِي البَيْتِ، عَامَّةُ جُلُوسِـه مُتَرَبِّعـًا خَاشِـعـًا. فَـإِذَا كَانَ بَرًّا، لَـمْ يَتَبَيَّنْ مِنْهُ شِدَّةُ خُشُوعٍ، وَكُنْتُ أَدْخُلُ وَالجُزْءُ فِي يَدِهِ يَقْرَأُ.

وقـال المَيْمُوْنِي: مَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْـتُ أَحَداً أَنظفَ بَدنـًا، وَلاَ أَشَـدَّ تَعَاهداً لِنَفْسِهِ فِي شَارِبِهِ وَشـعـرِ رَأْسهُ وَشعرِ بَدنِه، وَلاَ أَنْقَى ثَوبـًا بِشِدَّةِ بَيَاضٍ مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

قـال عَبْـدُ اللهِ بـنُ أَحْمَدَ، قَـالَ لِي أَبِـي: خُـذْ أَيَّ كِتَابٍ شِـئْتَ مِنْ كُتُبِ وَكِيْعٍ مِنَ المُصَنَّفِ، فَإِنْ شِـئْتَ أَنْ تَسْـأَلَنِي

عَنِ الكَلاَمِ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِالإِسْنَادِ، وَإِنْ شِئْتَ بِالإِسْنَادِ حَتَّى أُخْبِرَكَ أَنَا بِالكَلاَمِ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلفَ أَلفِ حَدِيْث. فَقِيْلَ لَهُ: وَمَا يُدرِيكَ؟ قَالَ: ذَاكَرْتُهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ.

فَهَذِهِ حِكَايَةٌ صَحِيْحَةٌ فِي سَعَةِ عِلمِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَكَانُوا يَعُدُّوْنَ فِي ذَلِكَ المُكَرَّرَ، وَالأَثَرَ، وَفَتْوَى التَّابِعِيِّ، وَمَا فُسِّرَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَإِلاَّ فَالمُتُوْنَ المَرفُوعَةُ القَوِيَّةُ لاَ تَبلُغُ عُشْرَ مِعشَارِ ذَلِكَ.

قَالَ إِبْرَاهِيْمُ الحَرْبِيُّ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ، كَأَنَّ اللهَ جَمَعَ لَهُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ.

وقال ابْنَ رَاهْوَيْه: كُنْتُ أُجَالِسُ أَحْمَدَ وَابْنَ مَعِيْنٍ، وَنَتَذَاكَرُ، فَأَقُوْلُ: مَا فِقْهُهُ؟ مَا تَفْسِيْرُهُ؟ فَيَسكُتُوْنَ إِلاَّ أَحْمَدَ.



قَـالَ أَبُو بَكْرٍ الخَـلَّالُ: كَانَ أَحْمَدُ قَدْ كَتَـبَ كُتُبَ الرَّأْيِ وَحَفِظَهَا، ثُمَّ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا.

قَـالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ شَـمَّاس: سَـمِعْتُ وَكِيْعـًا وَحَفْصَ بنَ غِيَـاثٍ يَقُوْلاَنِ: مَا قَدِمَ الكُوْفَةَ مِثْلُ ذَاكَ الفَتَى، يَعنِيَانِ: أَحْمَدَ بنَ حَنْبَل.

قَـالَ يَحْيَـى القَطَّانُ: مَا قَـدِمَ عَلَيْنَـا مِثْلُ هَذَيْـنِ؛ أَحْمَدَ، وَيَحْيَـى بنِ مَعِيْـنٍ، وَمَا قَدِمَ عَلَيَّ مِـنْ بَغْدَادَ أَحَـبُّ إِلَيَّ مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ.

وَقَالَ مُهَنَّا بنُ يَحْيَى: قَدْ رَأَيْتُ ابْنَ عُيَيْنَةَ، وَوَكِيْعـًا، وَعَبْدَ الرَّزَّاقِ، وَالنَّاسَ. مَا رَأَيْـتُ رَجُلاً أَجْمَعَ مِنْ أَحْمَدَ فِي عِلْمِهِ وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ.

قَـال عَبْـدُ اللهِ بـنُ أَحْمَد: سَـمِعْتُ أَبِـي يَقُـوْلُ: قَدِمتُ صَنْعَـاءَ، أَنَا وَيَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ، فَمَضَيـْتُ إِلَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ فِي

قَريَتِـهِ، وَتَخَلَّف يَحْيَى، فَلَمَّا ذَهبتُ أَدُقُّ البَابَ، قَالَ لِي بَقَّالٌ تُجَاهُ دَارِهِ: مَهْ، لاَ تَدُقَّ، فَإِنَّ الشَّيْخَ يُهَابُ. فَجَلَسْتُ حَتَّى إِذَا كَانَ قَبْـلَ المَغْرِبِ، خَرَجَ، فَوَثَبتُ إِلَيْـهِ، وَفِي يَدِي أَحَادِيْثُ انْتَقَيْتُهَا، فَسَلَّمتُ، وَقُلْتُ: حَدِّثنِي بِهَذِهِ -رَحِمَكَ اللهُ- فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيْبٌ.

قَالَ: وَمَنْ أَنْتَ؟

قُلْتُ: أَنَا أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

قَـالَ: فضَمَّنِـي إِلَيْـهِ، وَقَـالَ: بِـاللهِ أَنْـتَ أَبُـو عَبْـدِ اللهِ؟ ثُمَّ أَخَذَ الأَحَادِيْثَ، وَجَعَلَ يَقرَؤُهَا حَتَّى أَظلَمَ الليل.

قال الرَّمَادِيُّ، سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّزَّاقِ، ذَكَرَ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: بَلَغَنِـي أَنَّ نَفَقَتَهُ نَفَدَتْ، فَأَخَذتُ بِيَدِهِ، فَأَقَمتُـهُ خَلْفَ البَابِ، وَمَا مَعَنَا أَحَدٌ، فأعطيته عَشْـرَةَ دَنَانِيْرَ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ قَبِلْتُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، قَبِلتُ مِنْكَ.



وَقَـالَ عَبْدُ اللهِ: قُلْتُ لأَبِي: بَلَغَنِـي أَنَّ عَبْدَ الرَّزَّاقِ عَرَضَ عَلَيْكَ دَنَانِيْرَ؟

قَالَ: نَعَـمْ، وَأَعْطَانِي يَزِيْدُ بنُ هَـارُوْنَ خَمْسَ مائَةِ دِرْهَمٍ -أَظُنُّ- فَلَمْ أَقبَلْ.

قـال الجَوْزَجَانِـي: كَانَ أَحْمَـدُ بـنُ حَنْبَلٍ يُصَلِّـي بعَبْدِ الرَّزَّاقِ، فَسَـهَا، فَسَـأَلَ عَنْهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، فَأُخْبِـرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ شَيئًا مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّام!

وقَالَ أَحْمَدُ بنُ سِـنَانٍ القَطَّانُ: مَا رَأَيْتُ يَزِيْدَ لأَحَدٍ أَشَـدَّ تَعْظِيْمـًا، مِنْهُ لأَحْمَدَ بـنِ حَنْبَلٍ، وَلاَ أَكرَمَ أَحَـداً مِثْلَهُ، كَانَ يُقْعِدُهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَيُوَقِّرُهُ، وَلاَ يُمَازِحُهُ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: مَا رَأَيْتُ أَحداً أَفقَهَ وَلاَ أَوْرَعَ مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ.

قُلْتُ: قَالَ هَذَا، وَقَدْ رَأَى مِثْلَ الثَّوْرِيِّ وَمَالِكٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ.

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ عُلَيَّةَ: أَنَّهُ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَقَالَ: هَا هُنَا أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، قُوْلُوا لَهُ يَتَقَدَّمْ يُصَلِّيَ بِنَا.

وَقَالَ الهَيْثَمُ بنُ جَمِيْلٍ الحَافِظُ: إِنْ عَاشَ أَحْمَدُ، سَيَكُوْنُ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ.

وَقَالَ قُتَيْبَةُ: خَيْرُ أَهْلِ زَمَانِنَا ابْنُ المُبَارَكِ، ثُمَّ هَذَا الشَّابُّ -يَعْنِي: أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ- وَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلاً يُحِبُّ أَحْمَدَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ.

وَلَوْ أَدْرَكَ عَصْرَ الثَّوْرِيِّ وَالأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ، لَكَانَ هُوَ المُقَدَّمَ عَلَيْهِم.

فَقِيْلَ لِقُتَيْبَةَ: يُضَمُّ أَحْمَدُ إِلَى التَّابِعِيْنَ؟

فَقَالَ: إِلَى كِبَارِ التَّابِعِيْنَ.

قُلْتُ: قَدْ رَوَى أَحْمَدُ فِي (مُسْنِدِهِ) عَنْ قُتَيْبَةَ كَثِيْراً.



قَـالَ المُزَنِيُّ: قَالَ لِي الشَّـافِعِيُّ: رَأَيْتَ بِبَغْدَادَ شَـابّـًا، إِذَا قَالَ: حَدَّثَنَا، قَالَ النَّاسُ كُلُّهُم: صَدَقَ.

قُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟

قَالَ: أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

وَقَالَ حَرْمَلَةُ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: خَرَجتُ مِنْ بَغْدَادَ، فَمَـا خَلَّفتُ بِهَا رَجُلاً أَفْضَـلَ، وَلاَ أَعْلَمَ، وَلاَ أَفْقَهَ، وَلاَ أَتْقَى مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ.

وَعَن علي بنِ المَدِيْنِيِّ، قَالَ: أَعَزَّ اللهُ الدِّيْنَ بِالصِّدِّيْقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ، وَبِأَحْمَدَ يَوْمِ المِحْنَةِ.

وَقَالَ أَبُـو عُبَيْدٍ: إِنِّي لأَتَدَيَّنُ بِذِكْرِ أَحْمَدَ، مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَعْلَمَ بِالسُّنَّةِ مِنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ مَعِيْنٍ: أَرَادُوا أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ أَحْمَدَ، وَاللهِ لاَ أَكُوْنُ مِثْلَهُ أَبَداً.

قَـالَ ابْـنُ أَبِي حَاتِم: سَـأَلْتُ أَبِي عَـنْ عَلِيِّ بـنِ المَدِيْنِيِّ وَأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، أَيُّهُمَا أَحْفَظُ؟

فَقَالَ: كَانَا فِـي الحِفْظِ مُتَقَارِبَيْـنِ، وَكَانَ أَحْمَدُ أَفْقَهَ، إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يُحِبُّ أَحْمَدَ، فَاعْلَمْ أَنَهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ.

وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ أَكْبَرُ مِن إِسْحَاقَ وَأَفْقَهُ، مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَكمَلَ مِنْ أَحْمَدَ.

وَقَالَ النَّسَـائِيُّ: جَمَعَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ المَعْرِفَةَ بِالحَدِيْثِ وَالفِقْهِ وَالوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالصَّبرِ.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: كَانَتْ مَجَالِسُ أَحْمَدَ مَجَالِسَ الآخِرَةِ، لاَ يُذكَرُ فِيْهَا شَيْءٌ مِنْ أَمرِ الدُّنْيَا، مَا رَأَيْتُهُ ذَكَرَ الدُّنْيَا قَطُّ.

قَالَ ابْنُ سَلْم: سَـمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ نَصرٍ المَرْوَزِيَّ يَقُوْلُ: صِرْتُ إِلَى دَارِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ مِرَاراً، وَسَـأَلْتُه عَنْ مَسَـائِلَ،



فَقِيْلَ لَهُ: أَكَانَ أَكْثَرَ حَدِيْثًا أَمْ إِسْحَاقُ؟ قَالَ: بَلْ أَحْمَدُ أَكْثَرُ حَدِيْثًا وَأَوْرَعُ، أَحْمَدُ فَاقَ أَهْلَ زَمَانِهِ.

قُلْتُ: كَانَ أَحْمَدُ عَظِيْمَ الشَّأْنِ، رَأْسًا فِي الحَدِيْثِ وَفِي الفِقْهِ، وَفِي التَّأَلُّهِ، أَثْنَى عَلَيْهِ خَلقٌ مِنْ خُصُومِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِإِخْوَانِهِ وَأَقْرَانِهِ؟!

وَكَانَ مَهِيْبًا فِي ذَاتِ اللهِ، حَتَّى قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَا هِبْتُ أَحَداً فِي مَسْأَلَةٍ، مَا هِبتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ.



فصلٌ فِي فَضْلِهِ وَتَأَلُّهِهِ وَشَمَائِلِهِ

صَالِحُ بنُ أَحْمَـد: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي يَوْمـًا أَيَّامَ الوَاثِقِ -وَاللهُ يَعلَـمُ عَلَى أَيِّ حَالٍ نَحْنُ- وَقَدْ خَـرَجَ لِصَلاَةِ العَصرِ، وَكَانَ لَهُ لِبْدٌ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، قَد أَتَى عَلَيْهِ سِنُوْنَ كَثِيْرَةٌ حَتَّى بَلِيَ، وَإِذَا تَحْتَه كِتَـابٌ كَاغَـدٌ (أي قرطاس) فِيْـهِ: بَلَغَنِي يَا أَبَا عَبْـدِ اللهِ مَا أَنْتَ فِيْهِ مِنَ الضِّيقِ، وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الدَّيْنِ، وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ بِأَرْبَعَةِ آلاَفِ دِرْهَم، وَمَا هِيَ مِنْ صَدَقَةٍ وَلاَ زَكَاة، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَرِثْتُهُ مِنْ أَبِي. فَقَرَأْتُ الكِتَـابَ، وَوَضَعتُه، فَلَمَّا دَخَلَ، قُلْتُ: يَا أَبِي، مَا هَذَا الكِتَابُ؟ فَاحْمَرَّ وَجْهُه، وَقَالَ: قد رَفَعْتُه مِنْكَ.

ثم كَتَبَ إِلَى الرَّجُلِ: وَصَلَ كِتَابُكَ إِلَيَّ، وَنَحْنُ فِي عَافِيَةٍ. فَأَمَّا الدَّيْنُ، فَإِنَّهُ لِرَجُلٍ لاَ يُرهِقُنَا، وَأَمَّا عِيَالنَا، فَفِي نِعمَةِ اللهِ. فَلَمَّا مَضتْ سَـنَةٌ أَوْ نَحوُهَا، ذَكرنَاهَا، فَقَالَ: لَوْ كُنَّا قَبِلنَاهَا، كَانَتْ قَدْ ذَهبتْ.



قــال عُبَيْدٌ القَــارِيُّ: دَخَلَ عَلَى أَحْمَدَ عَمُّــه، فقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَيْش هَذَا الغَمُّ؟ وَأَيْش هَذَا الحُزْنُ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: يَا عَمِّ، طُوبَى لِمَنْ أَخْمَلَ اللهُ ذِكْرَه.

قال صَالِح: رُبَّمَا رَأَيْتُ أَبِي يَأْخُذُ الكِسَــرَ، يَنفُضُ الغبارَ عَنْهَــا، وَيُصيِّرُهَا فِي قَصعَــةٍ، وَيَصُبُّ عَلَيْهَا مَــاءً، ثُمَّ يَأْكُلُهَا بِالملحِ، وَكَانَ يَأْتَدِمُ بِالخلِّ كَثِيْراً.

وَرُبَّمَا اعتللتُ فَيَأْخُذُ قَدَحًا فِيْهِ مَاءٌ، فيقرأُ فِيْهِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: اشربْ مِنْهُ، وَاغسلْ وَجْهَكَ وَيَدَيك.

وَكَانَ رُبَّمَا خَرَجَ إِلَى البَقَّالِ، فَيَشترِي الحَطَبَ وَالشَّيْءَ، فَيحملُه بِيَدِهِ.

وكُنْت أَسْمَعُه كَثِيراً يَقُوْلُ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

وقال المَرُّوْذِيُّ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ: مَا أَكْثَرَ الدَّاعِي لَكَ! فقَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُوْنَ هَذَا اسْتِدرَاجًا بِأَيِّ شَيْءٍ هَذَا؟

قَالَ المَرُّوْذِيُّ: رَأَيْتُ طَبِيبًا نَصرَانيًّا خَرَجَ مِن عِنْدِ أَحْمَدَ وَمَعَـهُ رَاهِبٌ، فَقَالَ: إِنَّهُ سَـأَلَنِي أَنْ يَجِيْءَ مَعِي لِيَرَى أَبَا عَبْدِ اللهِ.

وَأَدخلتُ نَصرَانيًّا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي لأَشتَهِي أَنْ أَرَاك مُنْذُ سِـنِيْنَ، مَا بَقَاؤكَ صلاَحٌ لِلإِسْـلاَمِ وَحدَهُم، بَلْ لِلْخَلقِ جَمِيْعًا، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابنَا أَحَدٌ إِلاَّ وَقَدْ رَضِيَ بِك.

فَقُلْـتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ: إِنِّي لأَرجُو أَنْ يَكُوْنَ يُدعَى لَكَ فِي جَمِيْعِ الأَمْصَارِ.

فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ نَفْسَـه، فَمَا يَنْفَعُه كَلاَمُ النَّاسِ.





وَمِنْ آدَابِهِ

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: رَأَيْتُ أَبِي يَأْخُذُ شَعرةً مِن شَعرِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَيَضَعُهَا عَلَى فِيْهِ يُقبِّلُهَا.

وَأَحسِبُ أَنِّي رَأَيْتُهُ يَضَعُهَا عَلَى عَيْنِهِ، وَيَغْمِسُهَا فِي المَاءِ وَيَشرَبُه يَسْتَشفِي بِهِ، ورَأَيْتُهُ أَخذَ قَصْعَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَغَسلهَا، ثُمَّ شَرِبَ فِيْهَا[1] وَرَأَيْتُهُ يَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ يَسْتَشفِي بِهِ، وَيَمسحُ بِهِ يَدَيْهِ وَوَجهَه.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ سَعِيْدٍ الدَّارِمِيُّ: كَتَبَ إِلَيَّ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: إلى أَبِي جَعْفَرٍ -أَكرمَه اللهُ- مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ.

---

(١) التبرُّك بآثار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أمر مشروع، فشعره ووضوؤه وآنيته وألبسته التي مسَّت جسده، كل ذلك مبارك، يُشرع التبرُّك به باتفاق العلماء، وهذا ما كان يفعله الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ.
لكنْ ينبغي أن يُعْلَم أنَّ تلك الآثار قد فُقِدت بسبب بُعْد العهد وطول الزمان، ولم يبق من ذلك شيء، والموجود في المتاحف اليوم إنما هي أشياء مدَّعاة، ليس عليها دليل.

وقَـالَ عبْدِ الرَّحْمَنِ الزُّهْرِيُّ: مَضَـى عَمِّي إِلَى أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ، وَثَبَ قَائِمًا وَأَكْرَمَهُ.

وَقَـالَ المَرُّوْذِيُّ: قَالَ لِي أَحْمَدُ: مَا كَتَبْتُ حَدِيْثًا إِلاَّ وَقَدْ عَمِلتُ بِهِ، حَتَّى مَرَّ بِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتَجَمَ، وَأَعْطَى أَبَا طَيْبَةَ دِيْنَاراً، فَأَعطيتُ الحَجَّامَ دِيْنَاراً حِيْنَ احتَجمتُ.

وَقَـالَ حَنْبَـلٌ: رَأَيْـتُ أَبَـا عَبْـدِ اللهِ إِذَا أَرَادَ القِيَـامَ، قَـالَ لِجُلَسَائِه: إِذَا شِئْتُم.

وَقَـالَ عَبْـدُ اللهِ بن أحمـد: سَـمِعْتُ أَبِي يَقُـوْلُ: قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِذَا صَحَّ عِندَكُمُ الحَدِيْثُ، فَأَخبِرُونَا حَتَّى نَرجِعَ إِلَيْهِ، أَنْتُـم أَعْلَمُ بِالأَخْبَارِ الصِّحَاحِ مِنَّا، فَإِذَا كَانَ خَبَرٌ صَحِيْحٌ، فَأَعْلِمْنِي حَتَّى أَذهبَ إِلَيْهِ.

قَـالَ يَحْيَى بـنُ مَعِيْنٍ: مَـا رَأَيْتُ مِثْـلَ أَحْمَـدَ، صَحِبنَاهُ خَمْسِيْنَ سَنَةً، مَا افتَخَرَ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ فِيْهِ مِنَ الخَيْرِ.



قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: كَانَ أَبِي يَقْرَأُ كُلَّ يَوْمٍ سُبْعًا، وَكَانَ يَنَامُ نَومَةً خَفِيْفَةً بَعْدَ العِشَاءِ، ثُمَّ يَقومُ إِلَى الصَّباحِ يُصَلِّي وَيَدعُو.

قَالَ أَحْمَدُ الدَّوْرَقِيُّ: لَمَّا قَدِمَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ مِنْ اليمن من عِنْدِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، رَأَيْتُ بِهِ شُحُوبًا بِمَكَّةَ، وَقَدْ تَبَيَّنَ عَلَيْهِ النَّصَبُ وَالتَّعَبُ، فَكَلَّمْتُه، فَقَالَ: هذا هَيِّنٌ فِيْمَا اسْتَفَدنَا مِنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ.

قَالَ المَرُّوْذِيُّ: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ إِذَا ذَكَرَ المَوْتَ، خَنَقَتْه العَبرَةُ.

وَكَانَ يَقُوْلُ: إِذَا ذَكَرْتُ المَوْتَ، هَانَ عَلَيَّ كُلُّ أَمرِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُوْنَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُوْنَ لِبَاسٍ، وَإِنَّهَا أَيَّامٌ قَلاَئِلُ، مَا أَعدِلُ بِالفَقْرِ شَيْئًا، وَلَوْ وَجَدتُ السَّبِيلَ، لَخَرجتُ حَتَّى لاَ يَكُوْنَ لِي ذِكْرٌ.

وَقَالَ: أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ فِي شِعْبٍ بِمَكَّةَ حَتَّى لاَ أُعرَفَ، قَدْ بُلِيتُ بِالشُّهرَةِ.

وَمِنْ سِيْرَتِه

قَالَ الخَلَّالُ: قُلْتُ لِزُهَيْرِ بنِ صَالِحٍ (حفيد الإمام أحمد) هَلْ رَأَيْتَ جَدَّكَ؟

قَالَ: نَعَمْ، مَاتَ وَأَنَا فِي عَشْرِ سِنِيْنَ، كُنَّا نَدخُلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ أَنَا وَأَخوَاتِي، وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ بَابٌ، وَكَانَ يَكْتُبُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا حَبَّتَيْنِ حَبَّتَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ فِي رُقعَةٍ إِلَى فَامِيٍّ يُعَامِلُه.

وَرُبَّمَا مَرَرْتُ بِهِ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي الشَّمْسِ، وَظَهرُه مَكشُوفٌ، فِيْهِ أَثَرُ الضَّرب بَيِّنٌ، وَكَانَ لِي أَخٌ أَصْغَرُ مِنِّي اسْمُهُ عَلِيٌّ، فَأَرَادَ أَبِي أَنْ يَخْتِنَهُ، فَاتَّخَذَ لَهُ طَعَامًا كَثِيْراً، وَدَعَا قَوْمًا.

فَوَجَّهَ إِلَيْهِ جَدِّي: بَلَغَنِي مَا أَحدَثْتَه لِهَذَا، وَإِنَّكَ أَسرفْتَ، فَابدَأْ بِالفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ.



فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الغَدِ، حَضَرَ الحَجَّامُ، وَحَضَرَ أَهْلُنا، جَاءَ جَدِّي حَتَّى جَلَسَ عِنْدَ الصَّبِيِّ، وَأَخرَجَ صُرَيرَةً، فَدَفَعَهَا إِلَى الحَجَّامِ، وَقَامَ، فَنَظَرَ الحَجَّامُ فِي الصُّرِيرَةِ، فَإِذَا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ.

وَكُنَّا قَدْ رَفعنَا كَثِيْراً مِنَ الفُرُشِ، وَكَانَ الصَّبِيُّ عَلَى مَصطَبَةٍ مُرتَفِعَةٍ مِنَ الثِّيَابِ المُلَوَّنَةِ، فَلَمْ يُنكِرْ ذَلِكَ.

وَقَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ خُرَاسَانَ ابْنُ خَالَةِ جَدِّي، فَنَزَلَ عَلَى أَبِي، فَدَخَلْتُ مَعَهُ إِلَى جَدِّي، فَجَاءتِ الجَارِيَةُ بِطَبَقٍ عَلَيْهِ خُبْزٌ وَبَقْلٌ وَمِلْحٌ، وَبِغَضَارَةٍ فِيْهَا لَحمٌ وَصِلقٌ[1]، فَأَكَلَ مَعَنَا، وَسَأَلَ ابْنَ خَالَتِه عَمَّنْ بَقِيَ مِنْ أَهلِه بِخُرَاسَانَ فِي خِلالِ الأَكْلِ، فَرُبَّمَا استَعجَمَ عَلَيْهِ، فَيُكَلِّمُهُ جَدِّي بِالفَارِسِيَّةِ، وَيَضَعُ اللَّحْمَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَبَيْنَ يَدِي.

ثُمَّ أَخَذَ طَبَقاً إِلَى جَنْبِهِ، فَوضعَ فِيْهِ تَمراً وَجَوزاً، وَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيُنَاوِلُ الرَّجُلَ.

(١) أي شواء كَثِيْرٌ.



قَالَ المَيْمُوْنِيُّ: كَثِيْراً مَا كُنْتُ أَسأَلُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عَنِ الشَّيْءِ، فَيَقُوْلُ: لَبَّيْكَ لَبَّيْك.

وَعَنِ المَرُّوْذِيِّ، قَالَ: لَمْ أَرَ الفَقِيرَ فِي مَجْلِس أَعَزَّ مِنْهُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ، كَانَ مَائِلاً إِلَيْهِم، مُقَصِّراً عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَكَانَ فِيْهِ حِلمٌ، وَلَمْ يَكُنْ بِالعَجُولِ، وَكَانَ كَثِيْرَ التَّوَاضُعِ، تَعْلُوهُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ، وَإِذَا جَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ العصرِ لِلْفُتْيَا، لاَ يَتَكَلَّمُ حَتَّى يُسْأَلَ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى مَسْجِدِهِ، لَمْ يَتَصَدَّرْ.

وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَدِيدَ الحَيَاءِ، كَرِيْمَ الأَخْلاَقِ، يُعجِبُه السَّخَاءُ.

قَالَ هَارُوْنُ المُسْتَمْلِي: لَقِيْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، فَقُلْتُ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ. فَأَعطَانِي خَمْسَةَ دَرَاهِمَ، وَقَالَ: مَا عِنْدَنَا غَيْرُهَا.

قَالَ حَمْدَانُ بنُ عَلِيٍّ: لَمْ يَكُنْ لِبَاسُ أَحْمَدَ بِذَاكَ، إِلاَّ أَنَّهُ قُطْنٌ نَظِيْفٌ.



وَقَالَ الفَضْلُ بنُ زِيَادٍ: رَأَيْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ فِي الشِّتَاءِ قَمِيصَيْنِ وَجُبَّةً مُلَوَّنَةً بَينَهُمَا، وَرُبَّمَا قَمِيصًا وَفَرْواً ثقيلاً، وَرَأَيْتُه عَلَيْهِ عِمَامَةٌ فَوْقَ القَلَنْسُوَةِ، وَكِسَاءً ثَقِيْلاً.

فَسَمِعْتُ أَبَا عِمْرَانَ الوَرْكَانِيَّ يَقُوْلُ لَهُ يَوْمًا: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، هَذَا اللِّبَاسُ كُلُّه؟ فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا رَقِيقٌ فِي البَرد!

وذكر مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ المَرُّوْذِيَّ حَدَّثَهُم فِي آدَابِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، قَالَ:

كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لاَ يَجْهَلُ، وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِ، حَلُمَ وَاحتَمَلَ، وَيَقُوْلُ: يَكفِي اللهُ.

وَلَمْ يَكُنْ بِالحَقُودِ وَلاَ العَجُولِ، كَثِيْرَ التَّوَاضُعِ، حَسَنَ الخُلُقِ، دَائِمَ البِشْرِ، لَيِّنَ الجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ، وَكَانَ يُحِبُّ فِي اللهِ، وَيُبَغِضُ فِي اللهِ، وَإِذَا كَانَ فِي أَمرٍ مِنَ الدِّينِ، اشتَدَّ لَهُ غَضبُهُ، وَكَانَ يَحتَمِلُ الأَذَى مِنَ الجِيْرَانِ.

وقال إِبْرَاهِيْمَ بنَ شَـمَّاس: كُنْـتُ أعرِف أَحْمَدَ بن حَنْبَلٍ وَهُوَ غُلَامٌ، وَهُوَ يُحْيِي اللَّيْلَ.

وَقَـالَ المَرُّوْذِيُّ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْـدِ اللهِ يَقومُ لِورِدِه قَرِيْبـًا مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ حَتَّى يُقَارِبَ السَّحَر.

وَقَـالَ عَبْـدُ اللهِ: رُبَّمَـا سَـمِعْتُ أَبِـي فِـي السَّـحَرِ يَدعُو لأَقوام بِأَسـمَائِهِم، وَكَانَ يُكْثِرُ الدُّعَاءَ وَيُخفِيه، وَيُصَلِّي بَيْنَ العِشَـاءيْنِ، فَإِذَا صَلَّى عشَاءَ الآخِرَة، رَكعَ رَكَعَاتٍ صَالِحَةً، ثُمَّ يُوتِرُ، وَينَامُ نومَةً خَفِيْفَةً، ثُمَّ يَقومُ فيُصَلِّي.

قَـالَ المَيْمُوْنِـيُّ: قَالَ لِـي القَاضِي مُحَمَّدُ بـنُ مُحَمَّدِ بنِ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيُّ:

قَالَ لِي أَحْمَدُ: أبوكَ (يعني الإمام الشـافعي) أَحَدُ السِّتَّةِ الَّذِيْنَ أَدعُو لَهُم سَحَراً.



وَكَانَــتْ قِرَاءته لَيِّنَةً، رُبَّمَا لَمْ أَفهَــمْ بَعْضَهَا، وَكَانَ يَصُوْمُ وَيُدمِنُ، ثُمَّ يُفطِرُ مَا شَاءَ الله، وَلاَ يترك صومَ الاثْنَيْنِ وَالخَمِيْس وَأَيَّـام البِيْضِ، فَلَمَّا رَجعَ مِنَ العَسْـكَرِ، أَدمنَ الصَّوْمَ إِلَى أَنْ مَاتَ.

قال الأَثْرَم: أُخبِرْتُ أَنَّ الشَّافِعِيَّ قَالَ لأَبِي عَبْدِ الله (يعني أحمـد بن حنبـل): إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْـنَ سَـأَلَنِي أَنْ أَلْتَمِسَ لَهُ قَاضِيـاً لِليَمَنِ، وَأَنْت تُحِبُّ الخُرُوجَ إِلَـى عَبْدِ الرَّزَّاقِ، فَقَدْ نِلتَ حَاجَتَكَ، وَتَقْضِي بِالْحَقِّ.

فَقَالَ أحمد لِلشَّافِعِيِّ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، إِنْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْكَ ثَانِيَةً، لَمْ تَرَنِي عِنْدَكَ.

قـال مُحَمَّـدُ بنُ مُوْسَـى: رَأَيْتُ أَبَـا عَبْدِ الله وَقَـدْ قَالَ لَهُ خُرَاسَانِيٌّ: الحَمْدُ لله الَّذِي رَأَيْتُكَ.

قَالَ: اقعُدْ، أَيُّ شَيْءٍ ذَا؟ مَنْ أَنَا؟



وَعَـنْ رَجُلٍ، قَالَ: رَأَيْتُ أَثَرَ الغَمِّ فِـي وَجْهِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَقَـدْ أَثنَى عَلَيْهِ شَـخصٌ، وَقِيْـلَ لَهُ: جَزَاكَ اللهُ عَنِ الإِسْـلاَمِ خَيْراً.

فقَالَ: بَلْ جَزَى اللهُ الإِسْلاَمَ عَنِّي خَيْراً، مَنْ أَنَا؟ وَمَا أَنَا؟!

وَقَـالَ المَرُّوْذِيُّ: سَـمِعْتُ أحمد بن حنبل ذَكَـرَ أَخْلاَقَ الوَرِعينَ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ أَنْ لاَ يَمقُتَنَا، أَيْنَ نَحْنُ مِنْ هَؤُلاَءِ؟!

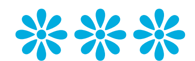
وَكَانَ يُحِبُّ الخمُوْلَ وَالانزوَاءَ عَنِ النَّاسِ، وَيَعُودُ المريضَ، وَكَانَ يَكْرَهُ المشْيَ فِي الأَسواقِ، وَيُؤثِرُ الوَحْدَةَ.

قَالَ المَيْمُوْنِيُّ: قَالَ أَحْمَدُ: رَأَيْتُ الخَلوَةَ أَروحَ لِقَلْبِي.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَـنِ بنِ هَارُوْنَ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ إِذَا مَشَى فِي الطَّرِيْقِ، يَكْرَهُ أَنْ يَتبعَه أَحَدٌ.

قُلْتُ: إِيثَارُ الخُمُوْلِ وَالتَّوَاضُعِ وَكَثْرَةُ الوَجلِ مِنْ علاَمَاتِ التَّقْوَى وَالفَلاَحِ.

قَـالَ صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ: كَانَ أَبِي إِذَا دَعَـا لَهُ رَجُلٌ، يَقُوْلُ: الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا.



المِحْنَة

الصَّـدعُ بِالْحَـقِّ عَظِيْـمٌ، يَحْتَـاجُ إِلَـى قُـوَّةٍ وَإِخْلاَصٍ، فَالمُخْلِصُ بِلاَ قُوَّةٍ يَعجِزُ عَنِ القِيَامِ بِهِ، وَالقَوِيُّ بِلاَ إِخلاَصٍ يُخْـذَلُ، فَمَنْ قَامَ بِهِمَا كَامِلاً، فَهُوَ صِدِّيْقٌ، وَمَنْ ضَعُفَ، فَلاَ أَقَـلَّ مِنَ التَّأَلُّمِ وَالإِنكَارِ بِالقَلْـبِ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ إِيْمَانٌ ولاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله .

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَدِينُهُم قَائِمًا فِي خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَامَ رُؤُوْسُ الشَّرِّ عَلَى الشَّهِيْدِ عُثْمَـانَ حَتَّـى ذُبِحَ صَبـراً، وَتَفرَّقـتِ الكَلِمَةُ، وَتَمَّـتْ وَقعَةُ الجَمَلِ، ثُمَّ وَقعَةُ صِفِّيْنَ.

فَظَهَرَتِ الخَوَارِجُ، وَكَفَّرتْ سَـادَةَ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ ظَهَرَتِ الرَّوَافِضُ وَالنَّوَاصِبُ.



وَفِـي آخِرِ زَمَـنِ الصَّحَابَةِ ظَهَـرتِ القَدَرِيَّـةُ، ثُمَّ ظَهرتِ المُعْتَزِلَةُ بِالبَصْرَةِ، وَالجَهْمِيَّةُ وَالمُجَسِّمَةُ بِخُرَاسَانَ فِي أَثْنَاء عَصـرِ التَّابِعِيْـنَ مَعَ ظُهورِ السُّـنَّةِ وَأَهْلِهَا إِلَى بَعْـدِ المائَتَيْنِ، فَظَهَـرَ المَأْمُوْنُ الخَلِيْفَـةُ -وَكَانَ ذَكِيًّا مُتَكَلِّمـًا، لَهُ نَظَرٌ فِي المَعْقُوْلِ- فَاسْتجلَبَ كُتبَ الأَوَائِلِ، وَعَرَّبَ حِكمَةَ اليُونَانِ، وَقَـامَ فِي ذَلِـكَ وَقَعَدَ، وَخَـبَّ وَوَضَـعَ، وَرَفَعَـتِ الجَهْمِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ رُؤُوْسَهَا، بَلْ وَالشِّيْعَةُ، فَإِنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ.

وَآلَ بِـهِ الحَالُ أَنْ حَمَلَ الأُمَّةَ عَلَى القَـوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَامتَحنَ العُلَمَاءَ، فَلَمْ يُمْهَلْ.

وَهَلَكَ لِعَامِه، وَخَلَّى بَعْدَهُ شَرّاً وَبَلاَءً فِي الدِّيْنِ، فَإِنَّ الأُمَّةَ مَا زَالَـتْ عَلَى أَنَّ القُرْآنَ العَظِيْمَ كَلاَمُ اللهِ وَوَحْيُه وَتَنْزِيْلُه، لاَ يَعْرِفُوْنَ غَيْرَ ذَلِكَ، حَتَّى نَبَغَ لَهُمُ القَوْلُ بِأَنَّهُ كَلاَمُ اللهِ مَخْلُوْقٌ، وَأَنَّـه إِنَّمَا يُضَـافُ إِلَى اللهِ إِضَافَةَ تَشـرِيفٍ، كَبَيتِ اللهِ، وَنَاقَةِ اللهِ! فَأَنكرَ العُلَمَاءُ ذلك.

وَلَمْ تَكُنِ الجَهْمِيَّـةُ يَظهرُوْنَ فِي دَوْلَةِ المَهْدِيِّ وَالرَّشِـيْدِ وَالأَمِيْنِ، فَلَمَّا وَلِيَ المَأْمُوْنُ، كَانَ مِنْهُم، وَأَظهرَ المَقَالَةَ.

قال مُحَمَّدِ بنِ نُوْحٍ: قال هارون الرَّشِـيْدَ: بَلَغَنِي أَنَّ بِشْـرَ بنَ غِيَاثٍ المَرِيْسِـيَّ يَقُوْلُ: إِنَّ القُـرْآن مَخْلُوْقٌ، فَلِلَّهِ عَلَيَّ إِنْ أَظفَرَنِي بِهِ، لأَقْتُلَنَّه.

قَالَ الدَّوْرَقِيُّ: وَكَانَ المريسي مُتَوَارِيـًا أَيَّامَ الرَّشِيْدِ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّشِيْدُ، ظَهَرَ، وَدَعَا إِلَى الضَّلاَلَةِ.

قُلْـتُ: ثُـمَّ إِنَّ المَأْمُـوْنَ نَظَرَ فِي الـكَلاَمِ، وَنَاظَـرَ، وَبَقِيَ مُتوقِّفـًا فِي الدُّعَاءِ إِلَى بِدعَتِهِ.

قَالَ أَبُـو الفَرَجِ بنُ الجَـوْزِيِّ: خَالَطَه قَوْمٌ مِـنَ المُعْتَزِلَةِ، فَحَسَّـنُوا لَهُ القَوْلَ بِخَلقِ القُرْآنِ، وَكَانَ يَتَـرَدَّدُ وَيُرَاقبُ بَقَايَا الشُّيُوْخِ، ثُمَّ قَوِيَ عَزْمُه، وَامتَحَنَ النَّاسَ.

قال ابْنُ أَكْثَمَ: قَالَ لَنَا المَأْمُوْنَ: لَوْ لاَ مَكَانُ يَزِيْدَ بنِ هَارُوْنَ، لأَظهرتُ أَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوْقٌ.



فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِه: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، وَمَنْ يَزِيْدُ حَتَّى يُتَّقَى؟ فَقَـالَ: وَيْحَكَ! إِنِي أَخَافُ إِنْ أَظْهَرتُهُ أن يَرُدُّ عَلَيَّ، فيَخْتلِفُ النَّاسُ، وَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ، وَأَنَا أَكرهُ الفِتْنَةَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَأَنَا أَستخْبُرُ ذَلِكَ مِنْهُ. فقَالَ المأمون: نَعَمْ. فَخَرَجَ إِلَى وَاسِـطَ، فَجَـاءَ إِلَى يَزِيْدَ، وَقَالَ: يَـا أَبَا خَالد، إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ، وَيَقُوْلُ لَكَ: إِنِّي أُرِيْدُ أَن أُظْهِر خَلقَ القُرْآنِ.

فَقَـالَ: كَذبـتَ عَلَى أَمِيْـرِ المُؤْمِنِيْـنَ، أَمِيْـرُ المُؤْمِنِيْنَ لاَ يَحمِـلُ النَّاسَ عَلَى مَا لاَ يَعْرِفُوْنَهُ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَاقعُدْ، فَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي المَجْلِسِ، فَقُلْ.

قَـالَ: فَلَمَّا أَنْ كَانَ الغَدُ، اجْتَمَعُـوا، فقَامَ، فَقَالَ كَمَقَالتِه. فَقَالَ يَزِيْدُ: كَذَبتَ عَلَـى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ، إِنَّه لاَ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى مَا لاَ يَعْرِفُوْنَهُ وَمَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ.

قَالَ: فرجع الرجل إلى المأمون، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ، كُنْتَ أنتَ أَعْلَمَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الخبر.

قَالَ صَالِح بن أحمد: ثُمَّ امْتُحِنَ القَوْمُ، وَوُجِّهَ بِمَنْ امتنعَ إِلَى الحَبْسِ، فَأَجَابَ القَوْمُ جَمِيْعًا غيْرَ أَرْبَعَةٍ: أَبِي، وَمُحَمَّدِ بنِ نُوْحٍ، وَالقَوَارِيْرِيِّ، وَالحَسَنِ بنِ حَمَّادٍ سَجَّادَةَ.

ثُمَّ أَجَابَ هَذَانِ، وَبَقِيَ أَبِي وَمُحَمَّد بن نوح فِي الحَبْسِ أَيَّامًا، ثُمَّ جَاءَ كِتَابٌ مِنْ طَرَسُوْسَ بِحَمْلِهِمَا مُقَيَّدَيْنِ زَمِيلَينِ.

وقال أَبُو مَعْمَرٍ القَطِيْعِي: لَمَّا أُحْضِرنَا إِلَى دَارِ السُّلْطَانِ أَيَّامَ المِحْنَةِ، وَكَانَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ قد أحْضِرَ، فَلَمَّا رَأى النَّاسَ يُجِيْبُوْنَ، وَكَانَ رَجُلاً لَيِّنًا، فَانتفَخَتْ أَوْدَاجُه، وَاحْمرَّتْ عَيناهُ، وَذَهَبَ ذَلِك اللِّيْنُ.

فَقُلْتُ: أَبْشِرْ، حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، عَنِ الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُمَيْعٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ:

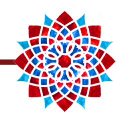


كَانَ مِـن أَصْحَابِ رَسُـوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَـنْ إِذَا أُرِيدَ عَلَى شَـيْءٍ مِن أَمرِ دِينِه، رَأَيْتَ حَمَالِيْقَ عَيْنَيْهِ فِي رَأْسهِ تَدُورُ كَأَنَّه مَجنُوْنٌ.

قال ابْنَ أَبِي أُسَامَة: حُكِيَ لَنَا أَنَّ أَحْمَدَ قِيْلَ لَهُ أَيَّامَ المِحْنَةِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَوَلاَ تَرى الحَقَّ كَيْفَ ظَهرَ عَلَيْهِ البَاطِلُ؟ فقَالَ: كَلاَّ، إِن ظُهورَ البَاطِلِ عَلَى الحَقِّ أَنْ تَنْتَقِلَ القُلُوْبُ مِنَ الهُدَى إِلَى الضَّلاَلَةِ، وَقُلُوْبُنَا بَعْدُ لاَزِمَةٌ لِلْحقِّ.

قـال أبو جَعْفَر الأَنْبَارِي: لَمَّا حُمِـلَ أَحْمَدُ إِلَى المَأْمُوْنِ، أُخبـرتُ، فَعَبَـرْتُ الفُرَاتَ، فَـإِذَا أحمد جَالِسٌ فِـي الخَانِ، فَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، فقَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، تَعَنَّيْتَ.

فَقُلْتُ له: أَنْتَ اليَوْمَ رَأسٌ، وَالنَّاسُ يَقتدُوْنَ بِكَ، فوَ اللهِ لَئِنْ أَجبـتَ إِلَى خَلقِ القُـرْآنِ، لَيُجِيْبَنَّ خَلـقٌ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُجِبْ، لَيَمْتَنِعَـنَّ خَلْقٌ مِـنَ النَّاسِ كَثِيْرٌ، وَمَـعَ هَذَا فَإِنَّ الرَّجُـلَ إِنْ لَمْ يَقْتُلْكَ فَإِنَّك تَمُوتُ، لاَبُدَّ مِنَ المَوْتِ، فَاتَّقِ اللهَ وَلاَ تُجِبْ.



فَجَعَلَ أَحْمَدُ يَبْكِي، وَيَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، أَعِدْ عَلَيَّ. فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ.

قَـالَ مُحَمَّدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ البُوْشَـنْجِيُّ: جَعَلُوا يُذَاكِرُوْنَ أَبَا عَبْدِ اللهِ (يعني الإمام أحمد) فِي التَّقِيَّةِ وَمَا رُوِيَ فِيْهَا.

فَقَالَ لهم: كَيْفَ تَصْنَعُـوْنَ بِحَدِيْثِ خَبَّابٍ: (إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ يُنْشَـرُ أَحَدُهُمْ بِالمِنْشَارِ، لاَ يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ) قال: فَأَيِسنَا مِنْهُ.

ثم قَالَ أحمد: لَسْـتُ أُبَالِي بِالحَبْسِ، مَـا هُوَ وَمَنْزِلِي إِلاَّ وَاحِدٌ، وَلاَ قَتلاً بِالسَّيْفِ، إِنَّمَا أَخَافُ فِتْنَةَ السَّوْطِ.

فَسَـمِعَهُ بَعْضُ أَهْـلِ الحَبْسِ، فَقَالَ: لاَ عَلَيْـكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، فَمَا هُوَ إِلاَّ سَـوْطَانِ، ثُمَّ لاَ تَدْرِي أَيْنَ يَقَعُ البَاقِي! فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْهُ.



قَـالَ صَالِحُ بـنُ أَحْمَدَ: حُمِـلَ أَبِي وَمُحَمَّدُ بـنُ نُوْحٍ مِنْ بَغْدَادَ مُقَيَّدَيْنِ، فَصِرنَا مَعَهُمَا إِلَى الأَنْبَارِ.

فَسَـأَلَ أَبُو بَكْـرٍ الأَحْوَلُ أَبِي: يَا أَبَا عَبْـدِ اللهِ، إِنْ عُرِضتَ عَلَى السَّيْفِ، تُجِيبُ؟ قَالَ: لاَ.

ثُمَّ سُيِّرَا، فَسَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: صِرنَا إِلَى الرَّحْبَةِ[1] وَرَحَلنَا مِنْهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ،

فَعَرَضَ لَنَا رَجُلٌ، فَقَالَ: أَيُّكُم أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ؟ فَقِيْلَ لَهُ: هَـذَا. فقَالَ لـه: يَا أحمد، مَا عَلَيْكَ أَنْ تُقتـلَ هَا هُنَا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟ ثُمَّ قَالَ: أَسْتودِعُكَ اللهَ، وَمَضَى.

قال أحمد: فَسَـأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيْلَ لِي: هَذَا رَجُلٌ مِن العَرَبِ مِنْ رَبِيْعَةَ يَعْمَلُ الشَّـعْرَ فِي البَادِيَةِ، يُقَـالُ لَهُ: جَابِرُ بنُ عَامِرٍ، يُذكَرُ بِخَيْرٍ.

---

(١) تقع الرحبة بين الرقة وبغداد.



قال إِبْرَاهِيْمُ بنُ عَبْدِ الله: قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: مَا سَمِعْتُ كَلِمَةً مُنْذُ وَقعتُ فِي هَذَا الأَمْرِ أَقوى مِنْ كَلِمَةِ أَعْرَابِيٍّ كَلَّمنِي بِهَا فِي رَحبَةِ طَوقٍ.

قَالَ لِي: يَا أَحْمَدُ، إِنْ يَقتلْكَ الحَقُّ مُتَّ شَهِيداً، وَإِنْ عِشتَ عِشتَ حَمِيداً.

فَقَوَّى قَلْبِي.

قَالَ صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ: قَالَ أَبِي: فَلَمَّا صِرنَا إِلَى أَذَنَةَ(١) وَرَحَلنَا مِنْهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَفُتِحَ لنَا بَابُهَا، إِذَا رَجُلٌ قَدْ دَخَلَ، فَقَالَ: البُشْرَى! قَدْ مَاتَ الرَّجُلُ، يَعْنِي: المَأْمُوْنَ.

قَالَ أَبِي: وَكُنْتُ أَدعُو اللهَ أَنْ لاَ أَرَاهُ، فلمْ أره، مَاتَ بِالبَذَنْدُوْنِ.

قُلْتُ: والبَذَنْدُوْنِ هو نهرُ الرُّوْمِ.

---

(١) أذنة هي أضنة، المدينة التركية المعروفة.



وَبَقِـيَ أَحْمَدُ مَحبوسـًا بالرَّقَّـةِ حَتَّى بُوْيِـعَ المُعْتَصِمُ إِثرَ مَوْتِ أَخِيْهِ، فَرُدَّ أَحْمَدُ إِلَى بَغْدَادَ.

قَالَ صَالِحٌ: لَمَّا صَدَرَ أَبِي وَمُحَمَّدُ بنُ نُوْحٍ إِلَى طَرَسُوْسَ، رُدَّا فِي أَقيَادِهِمَا.

فَلَمَّـا صَارَ إِلَـى الرَّقَّةِ، حُمِلا فِي سَـفِيْنَةٍ، فَلَمَّا وَصَلاَ إِلَى عَانَةَ تُوُفِّيَ مُحَمَّد بن نوح، وَفُكَّ قَيدُه، وَصَلَّى عَلَيْهِ أَبِي.

وَقَـالَ حَنْبَلٌ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ (أحمد بن حنبل): مَا رَأَيْتُ أَحَداً عَلَى حدَاثَةِ سِنِّهِ، أقومَ بأمرِ اللهِ مِنْ مُحَمَّدِ بنِ نُوْحٍ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ قَدْ خُتمَ لَهُ بِخَيْرٍ.

قَالَ لِي ذَاتَ يَوْم: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، الله الله، إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَى بِكَ.

قَـدْ مَدَّ الخَلْقُ أعناقَهُم إِلَيْكَ، لِمَا يَكُـوْنُ مِنْكَ، فَاتَّقِ اللهَ، وَاثبُتْ لأمرِ اللهِ، أَوْ نَحْوِ هَذَا.

فَمَاتَ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَدَفنته.



قَالَ صَالِحٌ: وَصَارَ أَبِي إِلَى بَغْدَادَ مُقَيَّدًا، فَمَكَثَ بِاليَاسرِيَّة أَيَّامًا، ثُمَّ حُبِسَ فِي دَارٍ اكتُرِيَتْ عِنْدَ دَارِ عُمَارَةَ، ثُمَّ حُوِّلَ إِلَى حَبْسِ العَامَّةِ فِي دَربِ المَوْصِلِيَّةِ.

قَالَ أحمد: كُنْتُ أُصلِّي بأَهْلِ السجنِ، وَأَنَا مُقَيَّدٌ. فَلَمَّا كَانَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعَ عَشَرَ -قُلْتُ: وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ المَأْمُونِ بأَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْراً- حُوِّلتُ إِلَى دَارِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ، يَعْنِي: نَائِبَ بَغْدَادَ.

وَأَمَّا حَنْبَلٌ، فَقَالَ: حُبِسَ أَبُو عَبْدِ اللهِ فِي دَارِ عُمَارَةَ بِبَغْدَادَ، فِي إِصْطَبْلِ الأَمِيْرِ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ؛ أَخِي إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ، وَكَانَ فِي حَبْسٍ ضَيِّقٍ، وَمَرِضَ فِي رَمَضَانَ.

ثُمَّ حُوِّلَ بَعْدَ قَلِيْلٍ إِلَى سِجنِ العَامَّةِ، فَمَكَثَ فِي السِّجنِ نَحْواً مِنْ ثَلاَثِيْنَ شَهْراً.

وَكُنَّا نَأْتِيهِ، فَقَرَأَ عَلَيَّ كِتَابَ (الإِرْجَاءِ) وَغَيْرَهُ فِي الحَبْسِ، وَرَأَيْتُهُ يُصَلِّي بِهِم فِي القَيْدِ.



قَـالَ صَالِحُ بـنُ أَحْمَدَ: قَالَ أَبِي: كَانَ يُوجَّـهُ إِلَيَّ كلَّ يَوْمٍ بِرَجلَيْنِ، أَحَدُهُمَا يُقَالُ لَهُ: أَحْمَدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ رَبَاحِ، وَالآخرُ أَبُو شُعَيْبٍ الحجَّامُ، فَلاَ يَزالاَنِ يُنَاظِرَانِي، حَتَّى إِذَا قَامَا دُعِيَ بِقَيدٍ، فَزِيدَ فِي قُيُودِي، فَصَارَ فِي رِجْلِيَّ أَرْبَعَةُ أَقيَادٍ.

قـال: فَلَمَّا صِرنَا إِلَى المَوْضِعِ المَعْرُوْفِ بِبَابِ البُسْـتَانِ، أُخرجـتُ، وَجيءَ بدَابَّةٍ، فَأُرْكبتُ وَعلَيَّ الأَقيَادُ، مَا مَعِي مَنْ يُمْسِكُنِي، فَكِدتُ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنْ أَخِرَّ عَلَى وَجْهِي لِثِقَلِ القُيودِ.

فَجِيءَ بِي إِلَى دَارِ المُعْتَصِمِ، فَأُدْخِلْتُ حُجْرَةً، ثُمَّ أُدخلتُ بَيتًا، وَأُقفلَ البَابُ عَليَّ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَلاَ سِرَاجَ.

فلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، أَخْرَجْتُ تِكَّتِي، وَشـددتُ بِهَا الأَقيَادَ أَحمِلُهَا، وَعَطفتُ سَرَاوِيلِي.

فَجَاءَ رَسُوْلُ المُعْتَصِمِ، فَقَالَ: أَجِبْ.

فَأَخَـذَ بيَدِي، وَأَدخلَنِي عَلَيْهِ، وأنا أَحْمِلُ الأَقيَادَ، وَإِذَا هُوَ جَالِـسٌ، وَأَحْمَدُ بنُ أَبِي دُوَادَ حَاضِرٌ، وَقَدْ جَمَعَ خَلقًا كَثِيْراً



مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَقَـالَ لِي المُعْتَصِـمُ: ادنُه، ادنُـه. فَلَمْ يَـزَلْ يُدْنِينِي حَتَّى قَرُبتُ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: اجلسْ.

فَجَلَسْـتُ، وَقَد أَثقلتْنِي الأَقيَادُ، فَمكثْتُ قَلِيْلاً، ثُمَّ قُلْتُ: أَتَأْذنُ فِي الكَلاَمِ؟ قَالَ: تَكَلَّمْ.

فَقُلْتُ: إِلَى مَا دَعَا اللهُ وَرَسُـوْلُه؟ فَسَـكَتَ هُنَيَّةً، ثُمَّ قَالَ: إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ.

فَقُلْـتُ: فَأَنَا أشـهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ. ثُـمَّ قُلْتُ: إِنَّ جدَّك ابْـنَ عَبَّاسٍ يَقُـوْلُ: لَمَّا قَـدِمَ وَفْدُ عَبْـد القيسِ عَلَى رَسُـوْلِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَـأَلُوهُ عَـنِ الإِيْمَـانِ، فَقَـالَ: (أَتَـدْرُوْنَ مَا الإِيْمَانُ؟). قَالُوا: اللهُ وَرَسُوْلُه أَعْلَمُ.

قَـالَ: (شَـهَادَةُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُـوْلُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنَّ تُعْطُوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَم).



فَقَـالَ المُعْتَصِم: لَوْلاَ أَنِّي وَجَدْتُك فِي يَدِ مَنْ كَانَ قَبلِي، مَا عَرَضتُ لَكَ.

ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ إِسْحَاقَ، أَلَم آمُرْكَ برفعِ المِحْنَةِ؟

فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّ فِي هَذَا لَفَرَجًا لِلْمُسْلِمِيْنَ.

ثُمَّ قَالَ لَهُم: نَاظِرُوهُ، وَكَلِّمُوهُ، يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ كَلِّمْه.

فَقَالَ: مَا تَقُوْلُ فِي القُرْآنِ؟

قُلْتُ: مَا تَقُوْلُ أَنْتَ فِي عِلمِ اللهِ؟

فَسَكَتَ، فَقَالَ لِي بَعْضُهُم: أَلَيْسَ قَالَ اللهُ -تَعَالَى-: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وَالقُرْآنُ أَلَيْسَ شَيْئًا؟

فَقُلْتُ: قَالَ اللهُ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ فهل دَمَّرتْ إِلاَّ مَا أَرَادَ اللهُ؟

فَقَالَ بَعْضُهُـمْ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أَفَيَكُوْنُ مُحدَثٌ إِلاَّ مَخْلُوْقًا؟

فَقُلْتُ: قَـالَ اللهُ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ①﴾ فَالذِّكرُ هُوَ القُرْآنُ، وَتِلْك ليسَ فِيْهَا أَلفٌ وَلاَمٌ.

وَذَكـرَ بَعْضُهُم حَدِيْثَ عِمْرَانَ بـنِ حُصَيْنٍ: (إِنَّ اللهَ خَلَقَ الذِّكْـرَ)، فَقُلْتُ: هَذَا خطأٌ، حَدَّثَنَا غَيْـرُ وَاحِدٍ: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الذِّكْرَ).

وَاحتجُوا بِحَدِيْث ابْنِ مَسْـعُوْدٍ: (مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ جَنَّةٍ وَلاَ نَارٍ وَلاَ سَمَاءٍ وَلاَ أَرْضٍ أَعْظَمَ مِنْ آيَةِ الكُرْسِيِّ). فَقُلْتُ: إِنَّمَا وَقَـعَ الخَلْقُ عَلَى الجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالسَّـمَاءِ وَالأرضِ، وَلَمْ يَقعْ عَلَى القُرْآنِ.

فَقَـالَ بَعْضُهُمْ: حَدِيْث خَبَّابٍ: (يَـا هَنَتَاهُ، تَقَرَّبْ إِلَى اللهِ بِمَـا اسْـتَطَعْتَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِشَـيْءٍ أَحَـبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَلاَمِهِ). فَقُلْتُ: هَكَذَا هُوَ.

قَالَ صَالِحٌ: وَجَعَلَ ابْنُ أَبِي دُوَادَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِي كَالمُغْضَبِ.



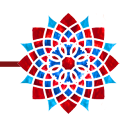
قَـالَ أَبِـي: وَكَانَ يَتَكَلَّمُ هَذَا، فَـأَرُدُّ عَلَيْـهِ، وَيَتَكَلَّمُ هَذَا، فَـأَرُدُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا انْقَطَعَ الرَّجُـلُ مِنْهُم، اعترضَ ابْنُ أَبِي دُوَادَ، فَيَقُـولُ: يَا أَمِيْـرَ المُؤْمِنِيْنَ، هُوَ –وَاللهِ– ضَـالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدِعٌ! فَيَقُوْلُ: كَلِّمُوهُ، نَاظِروهُ.

فَيكلِّمُنِـي هَـذَا، فَأَردُّ عَلَيْـهِ، وَيكلِّمني هَذَا، فَـأَردُّ عَلَيْهِ، فَـإِذَا انقطَعوا، يَقُوْلُ المُعْتَصِمُ: وَيْحَكَ يَـا أَحْمَدُ! مَا تَقُوْلُ؟ فَأَقُوْلُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ، أَعطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَقُوْلَ بِهِ.

قَـالَ حَنْبَلٌ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: لَقَدِ احتجُّوا عَلَيَّ بِشَـيءٍ مَا يَقْوَى قَلْبِي، وَلاَ ينطَلِقُ لِسَانِي أَن أَحكِيَهُ.

أَنكرُوا الآثَارَ، وَمَا ظَنَنتُهُم عَلَى هَذَا حَتَّى سَمِعْتُه.

قَـالَ مُحَمَّـدُ بـنُ إِبْرَاهِيْـمَ البُوْشَـنْجِيُّ: حَدَّثَنِـي بَعْضُ أَصْحَابِنَـا: أَنَّ أَحْمَدَ بـنَ أَبِي دُوَادَ أَقْبَلَ عَلَـى أَحْمَدَ يُكَلِّمُهُ،



فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، حَتَّى قَالَ الْمُعْتَصِمُ: يَا أَحْمَدُ، أَلاَ تُكَلِّمُ أَبَا عَبْدِ اللهِ؟

فَقُلْتُ: لَسْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فَأُكَلِّمَهُ!

قَالَ صَالِحٌ: وَجَعَلَ ابْنُ أَبِي دُوَادَ يَقُوْلُ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَاللهِ لَئِنْ أَجَابَكَ، لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلفِ دِيْنَارٍ، وَمائَةِ أَلْفِ دِيْنَارٍ، فَيَعُدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَعُدَّ.

فَقَالَ: لَئِنْ أَجَابَنِي لأُطْلِقَكُنَّ عَنْهُ بِيَدِي، وَلأَرْكَبَنَّ إِلَيْهِ بِجُنْدِي، وَلأَطَأَنَّ عَقِبَهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ، وَاللهِ إِنِّي عَلَيْكَ لَشَفِيْقٍ، وَإِنِّي لأُشْفِقُ عَلَيْكَ كَشَفقتِي عَلَى ابْنِي هَارُوْنَ، مَا تَقُوْلُ؟ فَأَقُوْلُ: أَعطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

فَلَمَّا طَالَ الْمَجْلِسُ، ضَجِرَ، وَقَالَ: قُومُوا، وَحَبَسَنِي عِنْدَهُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ إِسْحَاقَ يُكَلِّمُنِي، وَقَالَ: وَيْحَكَ! أَجِبْنِي.



فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ، أَعْرِفُه مُنْذُ ثَلاَثِيْنَ سَنَةً، يَرَى طَاعتَكَ وَالحَجَّ وَالجِهَادَ مَعَكَ.

فَيَقُوْلُ: وَاللهِ إِنَّهُ لَعَالِمٌ، وَإِنَّهُ لَفَقِيْهٌ، وَمَا يَسوءُنِي أَنْ يَكُوْنَ مَعِي يَرُدُّ عَنِّي أَهْلَ المِلَلِ.

ثُمَّ قَالَ: مَا كُنْتَ تَعْرِفُ صَالِحًا الرَّشِيْدِيَّ؟

قُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ. قَالَ: كَانَ مُؤَدِّبِي، وَكَانَ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ جَالِسًا -وَأَشَارَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الدَّارِ- فَسَأَلنِي عَنِ القُرْآنِ، فَخَالَفَنِي، فَأَمرْتُ بِهِ، فَوُطِئَ وَسُحِبَ! يَا أَحْمَدُ، أَجِبنِي إِلَى شَيْءٍ لَكَ فِيْهِ أَدنَى فَرَجٍ حَتَّى أُطْلِقَ عَنْكَ بِيَدِي.

قُلْتُ: أَعطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

فَطَالَ المَجْلِسُ، وَقَامَ، وَرُدِدْتُ إِلَى المَوْضِعِ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَجَّهَ إِلَيَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ أَبِي دَاوُدَ، يَبِيتَانِ عِنْدِي وَيُنَاظِرَانِي وَيُقِيمَانِ مَعِي، حَتَّى



إِذَا كَانَ وَقْتُ الإِفطَارِ، جِيْءَ بِالطَّعَامِ، وَيَجتَهِدَانِ بِي أَنْ أُفطِرَ فَلاَ أَفعَل. قُلْتُ: وَكَانَتْ لَيَالِيَ رَمَضَان.

قَالَ: وَوجَّهَ المُعْتَصِمُ إِلَيَّ ابْنَ أَبِي دُوَادَ فِي اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَقُوْلُ لَكَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ: مَا تَقُوْلُ؟ فَأَرُدُّ عَلَيْهِ نَحْواً مِمَّا كُنْتُ أَرُدُّ.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي دُوَادَ: إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ قَدْ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَكَ ضَرْباً بَعْدَ ضَربٍ، وَأَنْ يُلْقِيَكَ فِي مَوْضِعٍ لاَ ترَى فِيْهِ الشَّمْسَ.

وَيَقُوْلُ: إِنْ أَجَابَنِي، جِئْتُ إِلَيْهِ حَتَّى أُطْلِقَ عَنْهُ بِيَدِي، ثُمَّ انْصَرَف.

فَلَمَّا أَصبَحْنَا جَاءَ رَسُوْلُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي حَتَّى ذَهَبَ بِي إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُم: نَاظِرُوهُ، وَكَلِّمُوهُ.

فجعلُوا يُنَاظِرُونِي، فَأَرُدُّ عَلَيْهِم، قَالَ: فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِك إِلَى قُربِ الزَّوَالِ. فَلَمَّا ضجرَ، قَالَ: قومُوا.



ثُمَّ خلاَ بِي، وَبعَبْدِ الرَّحْمَن بن إِسْحَاق، فلَمْ يَزَلْ يُكلمنِي، ثُمَّ قَامَ وَدَخَلَ، وَرُددتُ إِلَى المَوْضِعِ.

قَالَ: فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ، قُلْتُ: خليقٌ أَنْ يَحْدُثَ غداً مِنْ أمرِي شَيْءٌ، فَقُلْتُ لِلموكَّلِ بِي: أُرِيْدُ خيطًا. فَجَاءنِي بخيطٍ، فشددتُ بِهِ الأَقيَادَ، وَرددتُ التِّكَّةَ إِلَى سَرَاويلِي مَخَافَةَ أَنْ يَحْدُثَ مِنْ أمرِي شَيْءٌ، فَأتعرَّى.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، أُدخلتُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا هِيَ غَاصَّةٌ، فَجَعَلتُ أُدْخَلُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وَقَوْمٌ مَعَهُمُ السُّيوفُ، وَقَوْمٌ مَعَهُمُ السِّيَاطُ، وَغَيْرُ ذَلِك.

وَلَمْ يَكُنْ فِي اليَومَيْنِ المَاضيينِ كَبِيْرُ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، قَالَ: اقعدْ.

ثُمَّ قَالَ: نَاظِروهُ، كَلِّمُوهُ.

فَجَعَلُوا يُنَاظرُونِي، يَتَكَلَّمُ هَذَا، فَأَردُّ عَلَيْهِ، وَيَتَكَلَّمُ هَذَا، فَأَردُّ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ صوتِي يعلُو أصوَاتَهُم.

فَجَعَلَ بَعْضُ مَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأسِي يُوْمِئُ إِلَيَّ بِيَدِهِ، فَلَمَّا طَالَ المَجْلِسُ، نَحَّانِي، ثُـمَّ خَلاَ بِهِم، ثُمَّ نَحَّاهُم، وَردَّنِي إِلَى عِنْدِهِ، وَقَالَ: وَيْحَك يَا أَحْمَدُ! أَجبنِي حَتَّى أُطلقَ عَنْكَ بِيَدِي.

فرددتُ عَلَيْهِ نَحْوَ ردِّي، فَقَالَ: خُذوهُ، اسحبُوهُ، خَلِّعُوهُ. فسُحبتُ، وَخُلعتُ.

قَـالَ: وَجَلَسَ المُعْتَصِمُ عَلَى كُرْسِـيٍّ، ثُمَّ قَـالَ: العُقَابَيْن وَالسِّـيَاطُ. فَجِيْءَ بِالعقَابينِ، فَمُدَّتْ يَـدَايَ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ خَلْفِي: خُذْ نَاتِئَ الخَشبتَينِ بِيَديكَ، وَشُدَّ عَلَيْهِمَا. فلمْ أَفهَمْ مَا قَالَ، فَتخلَّعتْ يَدَاي.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِبْرَاهِيمَ البُوْشَـنْجِيُّ: ذَكـرُوا أَنَّ المُعْتَصِمَ أَلاَنَ فِـي أَمـرِ أَحْمَـدَ لَمَّـا علِّـقَ فِـي العُقَابيـنِ، وَرَأَى ثبَاتَه وَتصمِيمَه وَصلاَبَتَه، حَتَّى أَغـرَاهُ أَحْمَدُ بنُ أَبِي دُوَاد، وَقَالَ: يَـا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ، إِنْ تَركتَـه، قِيْلَ: قَدْ ترك مَذْهَبَ المَأْمُوْنِ، وَسَخطَ قَوْلَه. فَهَاجه ذَلِكَ عَلَى ضَربِه.



ثُــمَّ قَالَ لِلْجلاَّدِيْـنَ: تقدَّمُـوا. فَجَعَلَ يتقدمُ إِلَـيَّ الرَّجُلُ مِنْهُم، فيَضْرِبنِي سَـوطينِ، فيَقُوْلُ لَهُ: شُدَّ، قَطعَ اللهُ يدكَ! ثُمَّ يَتَنَحَّـى وَيتقدمُ آخرُ، فيَضْرِبنِي سـوطينِ، وَهُوَ يَقُوْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ: شُـدَّ، قطعَ اللهُ يدَكَ! فَلَمَّا ضُربتُ سَـبْعَةَ عَشَرَ سوطًا، قَـامَ إِلَـيَّ -يَعْنِـي: المُعْتَصِمُ- فقَـالَ: يَا أَحْمَدُ، عَـلاَمَ تَقتلُ نَفْسَك؟ إِنِّي -وَاللهِ- عَلَيْكَ لَشفيقٌ.

وَجَعَلَ عُجَيْفٌ يَنخَسُـنِي بقَائِمَةِ سـيفِه، وَقَـالَ: أَتُريدُ أَنْ تَغلِبَ هَؤُلاَءِ كُلَّهُم؟

وَجَعَلَ بَعْضُهُم يقُوْلُ: وَيْلَكَ! إِمَامُكَ عَلَى رَأْسك قَائِمٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُم: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، دمُه فِي عُنُقِي، اقْتُلْهُ.

وَجَعَلُـوا يَقُوْلُوْنَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْـنَ، أَنْتَ صَائِمٌ، وَأَنْتَ فِي الشَّمْسِ قَائِمٌ!

فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، مَا تَقُوْلُ؟

فَأَقُوْلُ: أَعطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ أَقُوْلُ بِهِ.

فَرَجَعَ، وَجَلَسَ، وَقَالَ لِلْجلاَّدِ: تقدمْ، وَأوجعْ، قطعَ اللهُ يدَك.

ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ، وَجَعَلَ يَقُوْلُ: وَيْحَك يَا أَحْمَدُ! أَجِبنِي.

فَجَعَلُوا يُقبِلُوْنَ عَلَيَّ، وَيَقُوْلُوْنَ: يَا أَحْمَدُ، إِمَامُك عَلَى رَأسكَ قَائِمٌ!

وَجَعَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُوْلُ: مَنْ صنعَ مِنْ أَصْحَابِك فِي هَذَا الأَمْرِ مَا تَصْنَعُ؟

وَالمُعْتَصِمُ يَقُوْلُ: أَجِبنِي إِلَى شَيْءٍ لَكَ فِيْهِ أدنَى فَرَجٍ حَتَّى أُطلِقَ عَنْكَ بِيَدِي. ثُمَّ رَجَعَ، وَقَالَ لِلْجَلاَّدِ: تقدَّمْ. فَجَعَلَ يَضْرِبُنِي سَوطينِ، وَيتنحَّى، وَهُوَ فِي خلاَلِ ذَلِك يَقُوْلُ: شُدَّ، قطعَ اللهُ يدَك. فَذَهَبَ عَقلِي، ثُمَّ أَفقتُ بَعْدُ، فَإِذَا الأَقيَادُ قد أطلقتْ عَنِّي.



فَقالَ لِي رَجُلٌ مِمَّن حضَرَ: كَبَبْنَاكَ عَلَى وَجْهِك، وَطَرحنَا عَلَى ظَهرِكَ بَارِيَّةً[1] وَدُسنَاكَ!

ثُـمَّ جِيْءَ بِـي إِلَى دَارِ إِسْـحَاقَ بـن إِبْرَاهِيْـمَ، فَحضرتُ الظّهـرَ، فَتَقَدَّمَ ابْنُ سِـمَاعَةَ، فَصَلَّى، فَلَمَّـا انْفَتَلَ مِنْ صَلاَتِه، وَقَالَ لِي: صَلَّيْتَ، وَالدَّمُ يَسيلُ فِي ثَوبِكَ؟

قُلْـتُ: قَدْ صَلَّى عُمَرُ وَجُرحُه يَثعَبُ دَمـًا. قَالَ صَالِحٌ: ثُمَّ خُلِّيَ عَنْهُ، فَصَارَ إِلَى مَنْزِلِه.

قَـالَ صَالِحٌ: وَأَخبَرَنِي رَجُلٌ حَضَـرَه: أَنَّهُ تَفقَّده فِي الأَيَّام الثَّلاَثَـةِ وَهُم يُنَاظِرونَه، فَمَا لَحَنَ فِـي كَلِمَةٍ. قَالَ: وَمَا ظَنَنتُ أَنَّ أَحداً يَكُوْنُ فِي مِثْلِ شَجَاعَتِه وَشِدَّةِ قَلْبِه.

قَـالَ حَنْبَـلٌ: سَـمِعْتُ أَبَا عَبْـدِ اللهِ يَقُـوْلُ: ذَهـبَ عقلِي مِرَاراً، فَكَانَ إِذَا رُفِعَ عَنِّي الضَّربُ، رَجعتْ إِلَيَّ نَفْسِـي، وَإِذَا اسْترخيتُ وَسقطتُ، رُفِعَ الضَّربُ، أَصَابَنِي ذَلِكَ مِرَاراً.

(١) يعني حصيراً.



وَرَأَيْتُه -يَعْنِي: المُعْتَصِمَ- قَاعِداً فِي الشَّمْسِ بِغَيْرِ مِظَلَّةٍ، فَسَمِعْتُه -وَقَد أفقتُ- يَقُوْلُ لاِبْنِ أَبِي دُوَادَ: لَقَدِ ارتكبتُ إِثْماً فِي أَمرِ هَذَا الرَّجُلِ.

فَقَالَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، إِنَّهُ -وَاللهِ- كَافِرٌ مُشرِك. فَلاَ يزَالُ بِهِ حَتَّى يَصرِفَه عَمَّا يُرِيْدُ.

وَقَدْ كَانَ أَرَادَ تَخلِيَتِي بِلاَ ضَربٍ، فَلَمْ يَدَعْه، وَلاَ إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيْمَ.

قَالَ حَنْبَلٌ: وَبَلَغَنِي أَنَّ المُعْتَصِمَ قَالَ لاِبْنِ أَبِي دُوَادَ بَعْدَ مَا ضُرِبَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: كَمْ ضُرِبَ؟

قَالَ: أَرْبَعَةً، أَوْ نَيِّفاً وَثَلاَثِيْنَ سَوطاً.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الفَضْلِ الأَسَدِيُّ، قَالَ: لَمَّا حُملَ أَحْمَدُ لِيُضْرَبَ، جَاؤُوا إِلَى بِشْرِ بنِ الحَارِثِ (الحافي) وَقَالُوا: قَدْ وَجبَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ.



فَقَـالَ: أَتُرِيـدُوْنَ مِنِّي أَقُومَ مَقَامَ الأَنْبِيَـاءِ، لَيْسَ ذَا عِنْدِي، حَفِظَ اللهُ أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِه.

قَـالَ صَالِحُ: فخُلِّيَ عَنْـهُ، فَصَارَ إِلَى المَنْـزِلِ، وَوُجِّهَ إِلَى المَطبـقِ، فَجِيْءَ برجلٍ مِمَّنْ يبصـرُ الضَّربَ وَالعلاجَ، فَنَظَر إِلَى ضربه، فقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ مَنْ ضُربَ أَلفَ سـوطٍ، مَا رأيتُ ضربًا مِثْلَ هَذَا، لَقَدْ جُرَّ عَلَيْهِ مِنْ خَلْفِه، وَمِن قُدَّامه، ثُمَّ أَخذَ ميـلاً، فَأدخَلَه فِي بَعْضِ تِلْكَ الجرَاحَـاتِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَمْ يُنْقَبْ؟ وَجعَلَ يَأتيه، وَيعَالِجُه.

وَكَانَ قـد أصَابَ وَجْهَه غَيْرُ ضَربَـة، وَمكثَ مُنكبًّا عَلَى وَجْهِه كم شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا شَـيْئًا أُرِيْدُ أَن أقطعَه. فَجَاءَ بِحَديدَةٍ، فَجَعَـلَ يُعلِّـقُ اللَّحْمَ بِهَـا، فَيقطَعُهُ بِسِـكِّينٍ مَعَـهُ، وَهُوَ صَابرٌ لِذَلِـكَ، يَجهرُ بِحمدِ اللهِ فِي ذَلِك، فَبَرَأَ مِنْـهُ، وَلَمْ يَزَلْ يتَوَجَّعُ مِنْ مَوَاضِعَ مِنْهُ، وَكَانَ أَثرُ الضَّربِ بَيِّنًا فِي ظَهْرِه إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ.

قـال صالح: وَدخلتُ يَوْمـًا، فَقُلْتُ لَـهُ: بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَيْك، فَقَالَ: اجعلنِي فِي حِلٍّ؛ إذْ لَمْ أَقُمْ بِنُصرتِك.

فَقُلْـتَ: لاَ أَجعلُ أحداً فِي حِلٍّ. فَتَبَسَّـمَ أَبِي، وَسـكتَ، وَسَـمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: لَقَدْ جَعَلتُ المَيِّـتَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَربِهِ إِيَّايَ.

ثُـمَّ قَالَ: مَـرَرْتُ بِهَذِه الآيَـةِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فَنَظَـرتُ فِـي تَفْسِـيْرِهَا، فَإِذَا هُوَ مَـا أَخْبَرَنَا هَاشِـمُ بنُ القَاسِـم، أَخْبَرَنَا المُبَارَكُ بنُ فَضَالَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَـمِعَ الحَسَـنَ يَقُوْلُ: إِذَا كَانَ يَـوْمُ القِيَامَة، جَثت الأُمَـمُ كُلُّهَا بَيْنَ يَـدَيِ الله رَبِّ العَالَمِيْـنَ، ثُـمَّ نُودِيَ أَنْ لاَ يقُـومَ إلاَّ مَنْ أَجرُه عَلَى اللهِ، فَلاَ يَقومُ إِلاَّ مَنْ عَفَا فِي الدُّنْيَا.

قَالَ: فَجَعَلتُ المَيِّتَ فِي حِلٍّ. ثُمَّ قَالَ: وَمَا عَلَى رَجُلٍ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ اللهُ بِسَبَبِهِ أَحَداً.



وَقال أَحْمَدُ بنُ سِنَانٍ: بَلَغَنِي أَنَّ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ جَعَلَ المُعْتَصِمَ فِي حِلٍّ فِي فَتحِ عَمُّورِيَّةَ، فَقَالَ: هُوَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَربِي.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِم: سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ يَقُوْلُ: دَعَا المُعْتَصِمُ بِعَمِّ أَحْمَدَ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: تَعْرِفونَه؟

قَالُوا: نَعَمْ، هُوَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

قَالَ: فَانظرُوا إِلَيْهِ، أَلَيْسَ هُوَ صَحِيْحَ البَدَنِ؟

قَالُوا: نَعَمْ، وَلَوْلاَ أَنَّهُ فعلَ ذَلِكَ، لكُنْتُ أَخَافُ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ لاَ يُقَامُ لَهُ.

قَالَ: وَلَمَّا قَالَ: قَدْ سَلَّمْتُه إِلَيْكُم صَحِيْحَ البَدَنِ، هَدأَ النَّاسُ وَسَكَنُوا.

قُلْتُ: مَا قَالَ هَذَا مَعَ تَمكُّنِهِ فِي الخِلاَفَةِ وَشَجَاعتِهِ إِلاَّ عَنِ أمرٍ كَبِيْرٍ، كَأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَمُوْتَ مِنَ الضَّربِ، فَتَخْرُجَ عَلَيْهِ العَامَّةُ. وَلَوْ خَرَجَ عَلَيْهِ عَامَّةُ بَغْدَادَ، لَرُبَّمَا عجِزَ عَنْهُم.



وَقَالَ حَنْبَـلٌ: لَمَّا أَمرَ المُعْتَصِمُ بِتخليَةِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، خَلعَ عَلَيْهِ مُبَطَّنَةً وَقَمِيصًا، وَطَيلسَانًا وَقَلَنْسُوَةً وَخُفًّا. فَبينَا نَحْنُ عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَالنَّاسُ فِي المَيدَانِ وَالدُّروبِ وَغَيْرِهَا، وَغُلِّقتِ الأسواقُ، إِذ خَرَجَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَلَى دَابَّةٍ مِنْ دَارِ المُعْتَصِمِ فِي تِلْكَ الثِّيَابِ، وَأَحْمَدُ بنُ أَبِي دُوَادَ عَنْ يَمِيْنِهِ، وَإِسْحَاقُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ -يَعْنِي: نَائِبَ بَغْدَادَ- عَنْ يسَارِهِ. فَلَمَّا صَارَ فِي الدِّهلِيزِ قَبْلَ أَنْ يَخرُجَ، قَالَ لَهُمُ ابْنُ أَبِي دُوَادَ: اكشفُوا رَأْسَهُ.

فَكشَفُوهُ -يَعْنِي: مِنَ الطَّيلسَانِ- وَذَهَبُوا يَأْخُذُوْنَ بِهِ نَاحِيَةَ المَيدَانِ نَحوَ طَرِيْقِ الحَبْسِ، فَقَالَ لَهُم إِسْحَاقُ: خُذُوا بِهِ هَا هُنَا -يُرِيْدُ دِجلَةَ- فَذَهَبَ بِهِ إِلَى الزَّوْرَقِ، وَحُمِلَ إِلَى دَارِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ إِلَى أَنْ صُلِّيَتِ الظُّهرُ، وَبَعَثَ إِلَى وَالِدِي وَإِلَى جِيرَانِنَا وَمَشَايِخِ المَحَالِّ، فَجُمِعُوا، وَأُدْخِلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُم: هَذَا أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، وَإِنْ كَانَ فِيْكُم مَنْ يَعْرِفُهُ، وَإِلاَّ فَلْيَعْرِفْهُ.



قَالَ ابْنُ سـمَاعَةَ -حِيْنَ دَخَلَ الجَمَاعَةُ- لَهُم: هَذَا أَحْمَدُ بـنُ حَنْبَـلٍ، وَإِنَّ أَمِيْـرَ المُؤْمِنِيْنَ نَاظـرَهُ فِي أَمـرِهِ، وَقَدْ خَلَّى سَـبِيلَهُ، وَهَا هُوَ ذَا، فَأُخْرِجَ عَلَى فَرَسٍ لإِسْـحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ عِنْـدَ غُروبِ الشَّـمْسِ، فَصَـارَ إِلَى مَنْزِلِـهِ، وَمَعَهُ السُّـلْطَانُ وَالنَّـاسُ، وَهُـوَ مُنْحَـنٍ، فَلَمَّا ذهـبَ لِينزلَ، احتَضنْتُـهُ، وَلَمْ أَعْلَـمْ، فوَقعَتْ يَدِي عَلَى مَوْضِـعِ الضَّربِ، فَصَاحَ، فَنَحَّيْتُ يَدِي، فنَزَلَ مُتوَكِّئًا عَلَيَّ، وَأغلقَ البَابَ، وَدَخلنَا مَعَهُ، وَرَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى وَجْهِهِ لاَ يَقدِرُ أَنْ يتحرَّكَ إِلاَّ بِجهدٍ، وَنزعَ مَا كَانَ خُلِعَ عَلَيْهِ، فَأمرَ بِهِ، فَبِيعَ، وَتَصدَّقَ بِثمنِهِ.

وَكَانَ المُعْتَصِمُ أمرَ إِسْـحَاقَ بنَ إِبْرَاهِيْمَ أَنْ لاَ يقطعَ عَنْهُ خَبَرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تُرِكَ فِيْمَا حُكِيَ لَنَا عِنْدَ الإِيَاسِ مِنْهُ.

وَبَلَغَنَا: أَنَّ المُعْتَصِمَ ندمَ، وَأُسـقطَ فِي يَدِه، حَتَّى صلحَ، فَكَانَ صَاحِبُ خَبَرِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ يَأتِينَا كُلَّ يَوْمٍ يَتَعرَّفُ خبرَه، حَتَّى صَحَّ، وَبقيتْ إِبهَامَـاهُ مُنخلعَتينِ، يَضرِبَانِ عَلَيْهِ

فِـي البَردِ، فَيُسَـخَّنُ لَـهُ المَاءُ، وَلَمَّـا أَردنَا علاجَـه، خِفْنَا أَنْ يدسَّ أَحْمَدُ بنُ أَبِي دُوَادَ سُـمّـًا إِلَـى المُعَالِجِ، فَعمِلنَا الدَّوَاءَ وَالمرهَمَ فِي مَنْزِلنَا.

وسَمِعْتُه يَقُوْلُ: كُلُّ مَنْ ذَكَرنِي فَفِي حِلٍّ إِلاَّ مُبتدِعـًا، وَقَدْ جَعَلتُ أَبَا إِسْـحَاقَ -يَعْنِي: المُعْتَصِمَ- فِي حِلٍّ، وَرَأَيْتُ اللهَ يَقُـوْلُ: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وَأَمَـرَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ بِالعفوِ فِي قِصَّةِ مِسْطَح.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: وَمَا ينفعُكَ أَنْ يُعَذِّبَ اللهُ أَخَاكَ المُسْـلِمَ فِي سَبَبكَ؟!

قَالَ حَنْبَلٌ: لَمَّا أَردنَا علاجَه، خِفْنَا أَنْ يَدُسَّ ابْنُ أَبِي دُوَادَ إِلَى المُعَالِجِ، فَيُلقِيَ فِي دَوائِه سُمّـًا، فَعملنَا الدَّوَاءَ وَالمرهَمَ عِنْدنَا، فَكَانَ فِي بَرنِيَّة، فَإِذَا دَاوَاهُ رَفَعنَاهَا.

قَالَ: وَكَانَ إِذَا أَصَابَه البَرْدُ، ضُرِبَ عَلَيْهِ.



مِحْنَةُ الوَاثِقِ

قَـالَ حَنْبَلٌ: لَمْ يَزَلْ أَبُو عَبْدِ اللهِ بَعْـدَ أَنْ بَرِئَ مِنَ الضَّربِ يَحضـرُ الجُمُعَـةَ وَالجَمَاعَةَ، وَيُحَـدِّثُ وَيُفْتِـي، حَتَّى مَاتَ المُعْتَصِـمُ، وَوَلِـيَ ابْنُهُ الوَاثِـقُ، فَأَظهَرَ مَا أظهرَ مِـنَ المِحْنَةِ وَالمَيلِ إِلَى أَحْمَدَ بنِ أَبِي دُوَادَ وَأَصْحَابِه.

فَلَمَّا اشـتدَّ الأَمْـرُ عَلَى أَهْـلِ بَغْـدَادَ، وَأَظْهَـرتِ القُضَاةُ المِحْنَةَ بخلقِ القُرْآنِ، كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ يَشْهَدُ الجُمُعَةَ، وَيُعِيدُ الصَّـلاَةَ إِذَا رَجعَ، وَيَقُولُ: تُؤْتَى الجُمُعَـةُ لِفَضلِهَا، وَالصَّلاَةُ تُعَادُ خَلْفَ مَنْ قَالَ بِهَذِهِ المَقَالَةِ.

وَجَـاءَ نَفرٌ إِلَـى أَبِي عَبْـدِ اللهِ، وَقَالُوا: هَذَا الأَمْرُ قَدْ فَشَـا وَتفَاقـمَ، وَنَحْـنُ نَخَافُـه عَلَـى أَكْثَرَ مِنْ هَـذَا، وَذَكَـرُوا ابْنَ أَبِـي دُوَادَ، وَأَنَّهُ عَلَـى أَنْ يَأْمُرَ المُعَلِّمِيْـنَ بِتعلِيْمِ الصِّبْيَانِ فِي المكَاتِبِ القُرْآنُ كَذَا وَكَذَا، فَنَحْنُ لاَ نَرضَى بِإِمَارَتِه. فَمَنَعهُم مِنْ ذَلِكَ، وَنَاظَرَهُم، وَأَمَرَهُم بِالصَّبْرِ.



قَـالَ: فَبَينَـا نحنُ فِي أَيَّـامِ الوَاثِـقِ، إِذ جَاءَ يَعْقُـوْبُ لَيلاً بِرِسَالَةِ الأَمِيْرِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ: يَقُوْلُ لَكَ الأَمِيْـرُ: إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ قَدْ ذَكَرَكَ، فَلاَ يَجتَمِعَنَّ إِلَيْكَ أَحَدٌ وَلاَ تُسَـاكِنِّي بِأَرْضٍ وَلاَ مَدِينَةٍ أَنَا فِيْهَا، فَاذهبْ حَيْثُ شِـئْتَ مِنْ أَرضِ اللهِ.

قَـالَ: فَاختَفَى أَبُو عَبْدِ اللهِ بَقِيَّةَ حَيَاةِ الوَاثِقِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الفِتْنَةُ، وَقُتِلَ أَحْمَدُ بنُ نَصْرٍ الخُزَاعِيُّ.

وَلَـمْ يَزَلْ أَبُـو عَبْدِ اللهِ مُختفيـًا فِي البَيْـتِ لاَ يَخرجُ إِلَى صَلاَةٍ وَلاَ إِلَى غَيْرِهَا حَتَّى هلكَ الوَاثِقُ.

وَعَـنْ إِبْرَاهِيْمَ بنِ هَانِئٍ، قَالَ: اخْتَفَـى أَبُو عَبْدِ اللهِ عِنْدِي ثَلاَثـًا، ثُمَّ قَالَ: اطلُبْ لِي مَوْضِعـًا.

قُلْتُ: لاَ آمَنُ عَلَيْكَ.

قَالَ: افعلْ، فَإِذَا فعلتَ، أَفَدتُكَ.



فَطَلَبتُ لَهُ مَوْضِعًا، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ: اخْتَفَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فِي الغَارِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَحَوَّل.

والعَجَبُ مِنْ أَبِي القَاسِم عَلِيِّ بن الحَسَنِ الحَافِظِ[1] كَيْفَ ذَكرَ تَرْجَمَةَ أَحْمَدَ مُطَوَّلَةً كعوائِدِه، وَلَكِنْ مَا أوردَ مِنْ أمرِ المِحْنَةِ كَلِمَةً مَعَ صِحَّة أَسَانِيْدِهَا، فَإِنَّ حَنْبَلاً أَلَّفهَا فِي جُزءينِ. وَكَذَلِكَ صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ، وَجَمَاعَةٌ.



(١) يعني ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

فَصْلٌ فِي حَالِ الإِمَامِ فِي دَوْلَةِ المُتَوَكِّلِ

قَالَ حَنْبَلٌ: وَلِيَ المُتَوَكِّلُ، فَأَظهَرَ اللهُ السُّنَّةَ، وَفَرَّجَ عَنِ النَّاسِ، وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ يُحَدِّثُنَا وَيُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ فِي أَيَّامِ المُتَوَكِّلِ.

وَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: مَا كَانَ النَّاسُ إِلَى الحَدِيْثِ وَالعِلْمِ أَحوجَ مِنْهُم إِلَيْهِ فِي زَمَانِنَا.

ثُمَّ إِنَّ رَافِعًا رَفَعَ إِلَى المُتَوَكِّلِ: إِنَّ أَحْمَدَ رَبَّصَ عَلَوِيًّا فِي مَنْزِلِهِ، يُرِيْدُ أَنْ يُخْرِجَهُ وَيُبَايِعَ عَلَيْهِ.

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ عِنْدنَا عِلمٌ، فَبَينَا نَحْنُ ذَاتَ لَيْلَةٍ نِيَامٌ فِي الصَّيْفِ، سَمِعنَا الجَلَبَةَ، وَرَأَينَا النِّيرَانَ فِي دَارِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَأَسرَعنَا، وَإِذَا بِهِ قَاعِدٌ فِي إِزَارٍ، وَمُظَفَّرُ بنُ الكَلْبِيِّ صَاحِبُ الخَبَرِ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُم، فَقَرَأَ صَاحِبُ الخَبَرِ كِتَابَ المُتَوَكِّلِ: وَرَدَ عَلَى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ أَنَّ عِندَكُم عَلَوِيًّا رَبَّصتَه لِتُبَايِعَ لَهُ وَتُظهِرَهُ... فِي كَلاَمٍ طَوِيْلٍ.



ثُمَّ قَالَ لَهُ مُظَفَّرٌ: مَا تَقُوْلُ؟

قَالَ: مَا أَعْرِفُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، وَإِنِّي لأَرَى لَهُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِي وَيُسْرِي، وَمَنْشَطِي وَمَكْرَهِي، وَأَثَرَةٍ عَلَيَّ، وَإِنِّي لأَدْعُو اللهَ لَهُ بِالتَّسدِيدِ وَالتَّوفِيقِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... فِي كَلَامٍ كَثِيْرٍ.

فَقَالَ مُظَفَّرٌ: قَدْ أَمَرَنِي أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ أَنْ أُحَلِّفَكَ.

قَالَ: فَأَحلَفَهُ بِالطَّلَاقِ ثَلَاثًا أَنَّ مَا عِنْدَهُ طَلِبَةَ أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ.

ثُمَّ فَتَّشوا مَنْزِلَ أَبِي عَبْدِ اللهِ وَالسربَ وَالغُرفَ وَالسطوحَ، وَفتَّشوا تَابوتَ الكُتُبِ، وَفتَّشوا النِّسَاءَ وَالمَنَازِلَ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، وَلَمْ يُحِسُّوا بِشَيءٍ، وَرَدَّ اللهُ الَّذِيْنَ كَفرُوا بِغَيظِهِم، وَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى المُتَوَكِّلِ، فَوَقَعَ مِنْهُ مَوقِعًا حَسَنًا، وَعَلِمَ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللهِ مَكْذُوْبٌ عَلَيْهِ.

وَكَانَ الَّذِي دَسَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِن أَهْلِ البِدَعِ، وَلَمْ يَمُتْ حَتَّى بَيَّنَ اللهُ أَمرَهُ لِلْمُسْلِمِيْن.



فلَمَّــا كَانَ بَعْــدَ أَيَّــام، بَيْنَا نَحْــنُ جُلُوْسٌ بِبَابِ الــدَّار، إِذَا يَعْقُوْبُ -أَحَدُ حُجَّــابِ المُتَوَكِّل- قَدْ جَاءَ، فَاسْــتَأْذَنَ عَلَى أَبِــي عَبْدِ اللهِ، فَدَخَلَ، وَدَخَــلَ أَبِي وَأَنَا، وَمَــعَ بَعْضِ غِلمَانِه بَــدْرَةٌ عَلَى بَغلٍ، وَمَعَهُ كِتَابُ المُتَــوَكِّلِ، فَقَرَأَهُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ: إِنَّــه صَحَّ عِنْــدَ أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ بَرَاءةُ سَــاحَتِكَ، وَقَدْ وَجَّهَ إِلَيْكَ بِهَذَا المَالِ تَسْتَعِينُ بِهِ.

فَأَبَى أَنْ يَقبَلَهُ، وَقَالَ: مَا لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ.

فَقَــالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اقبلْ مِــنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَا أَمرَكَ بِهِ، فَإِنَّه خَيْرٌ لَكَ عِنْدَهُ، فَإِنَّكَ إِنْ رَدَدتَه، خِفتُ أَنْ يَظُنَّ بِكَ سُوءاً. فَحِيْنَئِذٍ قَبِلهَا.

فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ.

قُلْتُ: لَبَّيكَ.

قَــالَ: ارفعْ هَذِهِ الإِنْجَانَــةَ وَضَع البَــدْرَةَ تَحْتَهَا. فَفَعَلتُ، وَخَرجْنَــا. فَلَمَّا كَانَ مِــنَ اللَّيْلِ، إِذَا أُمُّ وَلَــدِ أَبِي عَبْدِ اللهِ تَدقُّ



عَلَيْنَـا الحَائِطَ، فَقَالَتْ: مَـوْلاَيَ يَدعُو عَمَّـه. فَأَعْلَمتُ أَبِي، وَخَرَجْنَـا، فَدَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَذَلِكَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَا عَمِّ! مَا أَخَذَنِي النَّومُ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِهَذَا المَالِ.

وَجَعَـلَ يَتَوَجَّـعُ لأَخْـذِهِ، وَأَبِي يُسَـكِّنُهُ، وَيُسَـهِّلُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: حَتَّـى تُصبِحَ وَتَرَى فِيْهِ رَأْيَكَ، فَـإِنَّ هَذَا لَيْلٌ، وَالنَّاسُ فِي المَنَازِلِ.

فَأَمسَكَ وَخَرَجنَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ السَّحَرِ، وَجَّهَ إِلَى عُبْدُوْسِ بنِ مَالِكٍ، وَإِلَى الحَسَنِ بنِ البَزَّارِ، فَحضرَا، وَحَضَرَ جَمَاعَةٌ، مِنْهُم: هَـارُوْنُ الحَمَّـالُ، وَأَحْمَدُ بنُ مَنِيْعٍ، وَابـْنُ الدَّوْرَقِيِّ، وَأَبِـي، وَأَنَا، وَصَالِحٌ، وَعَبْدُ اللهِ، وَجعَلْنَا نَكتُبُ مَنْ يَذْكُرُونَه مِنْ أَهْلِ السِّترِ وَالصَّلاَحِ بِبَغْدَادَ وَالكُوْفَةِ، فَوجَّهَ مِنْهَا إِلَى أَبِي كُرَيْبٍ، وَلِلأَشَـجِّ، وَإِلَى مَنْ يَعْلَمُوْنَ حَاجتَه، فَفَرَّقهَا كُلَّهَا مَا بَيْنَ الخَمْسِيْنَ إِلَى المائَةِ، وَإِلَى المائَتَيْنِ، فَمَا بَقِيَ فِي الكِيْسِ دِرْهَمٌ.

فلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ، جَاءَ رَسُوْلٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ المُتَوَكِّلِ، وَقَالَ لَهُ: يَأمرُكَ بِالخُرُوجِ -يَعْنِي: إِلَى سَامَرَّاءَ- فَقَالَ: أَنَا شَيْخٌ ضَعِيْفٌ عَلِيلٌ.

فَكَتَبَ عَبْدُ اللهِ بِمَا رَدَّ عَلَيْهِ، فَوَرَدَ جَوَابُ الكِتَابِ: إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يَأْمُرُهُ بِالخُرُوجِ.

فَوَجَّهَ عَبْدُ اللهِ أَجْنَاداً، فَبَاتُوا عَلَى بَابِنَا أَيَّامًا، حَتَّى تَهَيَّأَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لِلْخُرُوْجِ، فَخَرَجَ.

قَالَ حَنْبَلٌ: فَأَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَ: دَخلْنَا إِلَى العَسْكَرِ، فَإِذَا نَحْنُ بِمَوْكِبٍ عَظِيْمٍ مُقبلٍ، فَلَمَّا حَاذَى بِنَا، قَالُوا: هَذَا وَصِيْفٌ. وَإِذَا بِفَارِسٍ قَدْ أَقبلَ، فَقَالَ لأَبِي عَبْدِ اللهِ: الأَمِيْرُ وَصِيْفٌ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُوْلُ لَكَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَمكَنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ -يَعْنِي: ابْنَ أَبِي دُوَادَ- وَأَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ يَقبَلُ مِنْكَ، فَلاَ تَدَعْ شَيْئًا إِلاَّ تَكَلَّمتَ بِهِ.



فَمَا رَدَّ عَلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَيْئًا، وَجَعَلْتُ أَنَا أَدْعُو لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَدَعَوتُ لِوَصِيْف، وَمَضَيْنَا، فَأُنزِلْنَا فِي دَارِ إِيتَاخ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَبُو عَبْدِ اللهِ، فَسَأَلَ بَعْدُ: لِمَنْ هَذِهِ الدَّارُ؟

قَالُوا: هَذِهِ دَارُ إِيتَاخ.

فقَالَ: حَوِّلُونِي، اكْتَرُوا لِي دَاراً.

قَالُوا: هَذِهِ دَارٌ أَنزَلَكَهَا أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ.

قَالَ: لاَ أَبِيتُ هَا هُنَا.

وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى اكتَرَينَا لَهُ دَاراً، وَكَانَتْ تَأْتِينَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَائِدَةٌ فِيْهَا أَلْوَانٌ يَأْمُرُ بِهَا الْمُتَوَكِّلُ وَالثَّلْجُ وَالفَاكِهَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَمَا ذَاقَ مِنْهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ شَيْئًا، وَلاَ نَظَرَ إِلَيْهَا، وَكَانَ نَفَقَةُ المَائِدَةِ فِي الْيَوْمِ مائَةً وَعِشْرِيْنَ دِرْهَمًا.

وَوجَّهَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلُ بِمَالٍ عَظِيْم، فَرَدَّهُ، فَقَالَ لَهُ عُبَيْدُ اللهِ بنُ يَحْيَى: فَإِنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَدفَعَهَا إِلَى وَلَدِكَ وَأَهلِكَ. قَالَ: هُم مُسْتَغْنُوْنَ.

فَرَدَّهَا عَلَيْهِ، فَأَخذَهَا عُبَيْدُ اللهِ، فَقَسَمَهَا عَلَى وَلَدِهِ، ثُمَّ أَجْرَى المُتَوَكِّلُ عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَرْبَعَةَ آلاَفٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ: إِنَّهُم فِي كِفَايَةٍ، وَلَيْسَتْ بِهِمِ حَاجَةٌ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ المُتَوَكِّلُ: إِنَّمَا هَذَا لِوَلَدِكَ، فَمَا لَكَ وَلِهَذَا؟ فَأَمسَكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُجرِي عَلَيْنَا حَتَّى مَاتَ المُتَوَكِّلُ.

وَجَرَى بَيْنَ أَبِي عَبْدِ اللهِ وَبَيْنَ أَبِي كَلاَمٌ كَثِيْرٌ، وَقَالَ: يَا عَمِّ! مَا بَقِيَ مِنْ أَعمَارِنَا؟ كَأَنَّكَ بِالأَمرِ قَدْ نَزَلَ، فَاللهَ اللهَ، فَإِنَّ أَوْلاَدَنَا إِنَّمَا يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَأْكُلُوا بِنَا، وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ قَلاَئِلُ، وَإِنَّمَا هَذِهِ فِتْنَةٌ.

قَالَ أَبِي: فَقُلْتُ: أَرْجُو أَنْ يُؤَمِّنَكَ اللهُ مِمَّا تَحذَرُ. فَقَالَ: كَيْفَ وَأَنْتُم لاَ تَترُكُوْنَ طَعَامَهُم وَلاَ جَوَائِزَهُم؟ لَوْ تَركتُمُوهَا، لَتَرَكُوكُم، مَاذَا نَنتَظِرُ؟ إِنَّمَا هُوَ المَوْتُ، فَإِمَّا إِلَى جَنَّةٍ، وَإِمَّا إِلَى نَارٍ، فَطُوْبَى لِمَنْ قَدِمَ عَلَى خَيْرٍ.



وَبَلَغَ المُتَوَكِّلَ مَا هُوَ فِيْهِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَجُلٌ لاَ يُرِيْدُ الدُّنْيَا، فَأَذِنَ لَهُ فِي الانْصِرَافِ، فَجَاءَ عُبَيْدُ اللهِ بنُ يَحْيَى وَقْتَ العَصْرِ، فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ قَدْ أَذِنَ لَكَ، وَأَمَرَ أَنْ يَفْرُشَ لَكَ حَرَّاقَةً تَنْحَدِرُ فِيْهَا.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: اطلبُوا لِي زَوْرَقًا أَنْحَدِرِ السَّاعَةَ. فَطَلَبُوا لَهُ زَوْرَقًا، فَانْحَدَرَ لِوَقْتِهِ.

قَالَ حَنْبَلٌ: فَمَا عَلِمْنَا بِقُدُوْمِه حَتَّى قِيْلَ: إِنَّه قَدْ وَافَى. فَاسْتَقبَلَتْه بِنَاحِيَةِ القَطِيعَةِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنَ الزَّوْرَقِ، فَمَشَيتُ مَعَهُ، فَقَالَ لِي: تَقَدَّمْ لاَ يَرَاكَ النَّاسُ فَيَعرِفُونِي، فَتَقَدَّمْتُهُ.

قَالَ: فَلَمَّا وَصَلَ أَلْقَى نَفْسَهُ عَلَى قَفَاهُ مِنَ التَّعَبِ وَالعَيَاءِ.

وَكَانَ رُبَّمَا اسْتَعَارَ الشَّيْءَ مِنْ مَنْزِلِنَا وَمَنْزِلِ وَلَدِه، فَلَمَّا صَارَ إِلَيْنَا مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ مَا صَارَ، امْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى لَقَدْ وُصِفَ لَهُ فِي عِلَّتِهِ قَرعَةٌ تُشوَى، فَشُويتْ فِي تَنُّورِ صَالِحٍ، فَعَلِمَ، فَلَمْ يَسْتَعمِلْهَا وَمِثلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَقَدْ ذَكَرَ صَالِحُ قِصَّةَ خُرُوْجِ أَبِيْهِ إِلَى العَسْكَرِ، وَرُجُوعِهِ، وَتَفْتِيْـشِ بُيُوْتِهِم عَلَى العَلَوِيِّ، وَوُرُودِ يَعْقُوْبَ بِالبَدرَةِ، وَأَنَّهُ بَكَـى، وَقَالَ: سَـلِمتُ مِنْهُم، حَتَّى إِذَا كَانَ فِـي آخِرِ عُمُرِي، بُلِيــتُ بِهِم، عَزمتُ عَلَيْكَ أَنْ تُفرِّقَهَا غداً. فَلَمَّا أَصْبَحَ، جَاءهُ حَسَــنُ بنُ البَزَّارِ، فَقَالَ: جِئنِي يَـا صَالِحُ بِمِيْزَانٍ، وَجِّهُوا إِلَى أَبْنَاءِ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ، وَإِلَى فُلاَنٍ.

حَتَّى فَرَّقَ الجَمِيْعَ، وَنَحْنُ فِي حَالَةٍ اللهُ بِهَا عَلِيْمٌ، فَأَعطيتُه.

فَكَتَــبَ صَاحِبُ البَرِيْـدِ: إِنَّه تَصدَّقَ بِالـكُلِّ لِيَومِهِ، حَتَّى بِالكِيْسِ!

فَجَاءَ عَلِيُّ بــنُ الجَهْمِ، وَقَالَ: قَدْ أَمَرَ لَكُم أَمِيرُ المُؤْمِنِيْنَ بِعَشْــرَةِ آلاَفٍ مَكَانَ الَّتِي فَرَّقَهَا، وَأَنْ لاَ يَعلَمَ شَيْخُكُم بِذَلِكَ فَيَغتَمَّ.

وَأَمرَ المُتَوَكِّلُ أَنْ تُشْتَرَى لَنَا دَارٌ، فَقَالَ: يَا صَالِحُ.

قُلْتُ: لَبَّيكَ.



قَالَ: لَئِنْ أَقررتَ لَهُم بِشِرَاءِ دَارٍ، لَتَكُونَنَّ القَطِيعَةُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم، إِنَّمَا يُرِيدُوْنَ أَنْ يُصَيِّرُوا هَذًا البَلَدَ لِي مَأْوًى. فَلَمْ يَزَلْ يُدَافِعُ بِشرَاءِ الدَّارِ حَتَّى انْدَفَعَ.

وَجَعَلَتْ رُسلُ المُتَوَكِّلِ تَأْتِيهِ يَسْأَلُوْنَه عَنْ خَبَرِهِ، وَيَرجِعُوْنَ، فَيَقُوْلُوْنَ: هُوَ ضَعِيْفٌ.

وَفِي خِلاَلِ ذَلِكَ يَقُوْلُوْنَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَرَاكَ.

وَجَاءهُ يَعْقُوْبُ، فَقَالَ: أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ مُشتَاقٌ إِلَيْكَ، وَيَقُوْلُ: انْظُرْ يَوْماً تَصِيْرُ فِيْهِ حَتَّى أُعَرِّفَهُ. فَقَالَ: ذَاكَ إِلَيْكُم. فَقَالَ: يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ، وَخَرَجَ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، جَاءَ، فَقَالَ: البُشْرَى يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يَقرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُوْلُ: قَدْ أَعفَيتُكَ مِنْ لُبسِ السُّودِ وَالرُّكوبِ إِلَى وُلاَةِ العُهُوْدِ وَإِلَى الدَّارِ، فَالبَسْ مَا شِئْتَ. فَجَعَلَ يَحمَدُ اللهَ عَلَى ذَلِكَ.

ثُـمَّ قَالَ يَعْقُوْبُ: إِنَّ لِي ابْنًا بِهِ مُعْجَـبٌ، وَإِنَّ لَهُ فِي قَلْبِي مَوقِعًا، فَأُحِـبُّ أَنْ تُحَدِّثَه بِأَحَادِيْثَ. فَسَـكَتَ، فلمَا خَرَجَ، قَالَ: أَتُرَاهُ لاَ يَرَى مَا أَنَا فِيْهِ؟!

وَكَانَ يَختِـمُ القُـرْآنَ مِنْ جُمُعَـةٍ إِلَى جُمُعَـةٍ، وَإِذَا خَتمَ، دَعَـا، وَنَحْنُ نُؤَمِّنُ، فَلَمَّا كَانَ غَـدَاةَ الجُمُعَة، وَجَّهَ إِلَيَّ وَإِلَى أَخِـي. فَلَمَّا خَتمَ، جَعَلَ يَدعُو وَنَحْنُ نُؤَمِّنُ، فَلَمَّا فَرَغَ، جَعَلَ يَقُوْلُ: أَسـتَخِيرُ اللهَ مَرَّاتٍ. فَجعلتُ أَقُوْلُ: مَا يُرِيْدُ؟ ثُمَّ قَالَ: إِنِّـي أُعْطِي اللهَ عَهـداً، إِنَّ عَهدَه كَانَ مَسْـؤُوْلاً، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ إِنِّي لاَ أُحدِّثُ بِحَدِيْثٍ تَمَامٍ أَبَداً حَتَّى أَلقَى اللهَ، وَلاَ أَسْتَثْنِي مِنْكُم أَحَداً.

فَخَرَجْنَـا، وَجَاءَ عَلِيُّ بنُ الجَهْـمِ، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: إِنَا للهِ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَأُخبِرَ المُتَوَكِّلُ بِذَلِكَ.

وَقَـالَ: إِنَّمَا يُرِيْـدُوْنَ أُحدِّثُ، وَيَكُوْنُ هَذَا البَلَدُ حَبْسِـي،



وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبَ الَّذِيْنَ أَقَامُوا بِهَذَا البَلَدِ لَمَّا أُعطُوا فَقَبلُوا، وَأُمِرُوا فَحَدَّثُوا، وَاللهِ لَقَدْ تَمنيَّتُ المَوْتَ فِي الأَمْرِ الَّذِي كَانَ، وَإِنِّي لأَتَمنَّى المَوْتَ فِي هَذَا وَذَاكَ، إِنَّ هَذَا فِتْنَةَ الدُّنْيا، وَذَاكَ كَانَ فِتنَةَ الدِّينِ.

ثُمَّ جَعَل يَضُمُّ أَصَابعَه، وَيَقُوْلُ: لَوْ كَانَ نَفْسِي فِي يَدِي، لأَرسَلْتُهَا. ثُمَّ يَفتَحُ أَصَابِعَه.

وَكَانَ المُتَوَكِّلُ يُكثِرُ السُّؤَالَ عَنْهُ، وَفِي خِلاَلِ ذَلِكَ يَأْمرُ لَنَا بِالمَالِ، وَيَقُوْلُ: لاَ يَعلَمْ شَيْخُهُم فَيَغْتَمَّ، مَا يُرِيْدُ مِنْهُم؟ إِنْ كَانَ هُوَ لاَ يُرِيْدُ الدُّنْيَا، فَلِمَ يَمْنَعُهُم؟!

وَقَالُوا لِلْمُتَوَكِّلِ: إِنَّه لاَ يَأْكُلُ مِنْ طَعَامِكَ، وَلاَ يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِكَ، وَيُحرِّمُ الَّذِي تَشربُ. فَقَالَ المتوكِّل: لَوْ نُشِرَ لِيَ المُعْتَصِمُ، وَقَالَ فِيْهِ شَيْئًا، لَمْ أَقبَلْ مِنْهُ.

قَالَ صَالِحٌ: ثُمَّ انحدرتُ إِلَى بَغْدَادَ، وَخَلَّفتُ عَبْدَ اللهِ عِنْدَهُ، فَإِذَا عَبْدُ اللهِ قَدْ قَدِمَ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ؟

قَـالَ: أَمَرَنِـي أَنْ أَنْحدِرَ. وَقَـالَ: قُلْ لِصَالِـحٍ: لاَ تَخرُجْ، فَأَنْتُم كُنْتُم آفَتِي، وَاللهِ لَوْ اسْـتَقبلتُ مِنْ أَمرِي مَا اسْـتدبرتُ، مَا أَخْرَجـتُ وَاحِداً مِنْكُم مَعِي، لَولاَكُـم لِمَنْ كانتْ تُوضَعُ هَـذِهِ المَائِدَةُ، وَتُفـرَشُ الفُرُشُ، وَتُجـرَى الأَجْرَاء؟ فَكتبتُ إِلَيْهِ أُعْلِمُه بِمَا قَالَ لِي عَبْدُ اللهِ، فَكَتَبَ إِلَيَّ بِخَطِّهِ:

أَحسَـنَ اللهُ عَاقبَتَـكَ، وَدَفَعَ عَنْكَ كُلَّ مَكـرُوهٍ وَمَحذُورٍ، الَّـذِي حَمَلَنِـي عَلَى الكِتَابِ إِلَيْـكَ الَّذِي قُلْـتُ لِعَبْدِ اللهِ، لاَ يَأْتِينِـي مِنْكُم أَحَدٌ رَجَاءَ أَنْ يَنقطِعَ ذِكْرِي وَيَخمُل، وَإِذَا كُنْتُم هَا هُنَا، فَشَا ذِكرِي، وَكَانَ يَجتمعُ إِلَيْكُم قَوْمٌ يَنقُلُوْنَ أَخبَارَنَا، وَلَمْ يَكُنْ إِلاَّ خَيْرٌ، فَإِنْ أَقَمْتَ فَلَمْ يَأْتِنِي أَنْتَ وَلاَ أَخُوكَ، فَهُوَ رِضَائِي، وَلاَ تَجعلْ فِي نَفْسِكَ إِلاَّ خَيْراً، وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ.

قَالَ: وَلَمَّا سَافَرْنَا، رُفِعَتِ المَائِدَةُ وَالفُرُشُ، وَكُلُّ مَا أُقِيمَ لَنَا.

قَالَ صَالِحٌ: وَبَعَثَ المُتَوَكِّلُ إِلَى أَبِي بِأَلف دِيْنَارٍ لِيَقْسِمَهَا، فَجَاءهُ عَلِيُّ بـنُ الجَهْمِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ يُهَيِّئُ لَه



حَرَّاقَةً، ثُمَّ جَاءَ عُبَيْدُ الله بِأَلف دِيْنَار، فَقَالَ: إِنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ قَـدْ أَذِنَ لَكَ، وَأَمرَ لَكَ بِهَذَا. فَقَالَ: قَدْ أَعفَانِي أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ مِمَّا أَكرَهُ. فَرَدَّهَا.

فَقَدِمَ عَلَيْنَا، ثُمَّ قَالَ: يَا صَالِحُ.

قُلْتُ: لَبَّيكَ.

قَـالَ: أُحِبُّ أَنْ تَدعَ هَـذَا الرِّزْقَ، فَإِنَّمَا تَأْخذُونَه بِسَـبَبِي. فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟

قُلْـتُ: أَكـرَهُ أَنْ أُعطِيَـكَ بِلِسَـانِي، وَأُخَالِفَ إِلَـى غَيْرِهِ، وَلَيْسَ فِي القَوْمِ أَكْثَرُ عِيَالاً مِنِّي، وَلاَ أُعذَرُ، وَقَدْ كُنْتُ أَشكُو إِلَيْـكَ، وَتَقُوْلُ: أَمرُكَ مُنعقِدٌ بِأَمـرِي، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَحُلَّ عَنِّي هَـذِهِ العُقْدَةَ، وَقَدْ كُنْـتَ تَدعُو لِي، فَأَرْجُـو أَنْ يَكُوْنَ اللهُ قَدِ اسْتَجَابَ لَكَ.

فَقَالَ: لاَ تَفعلُ.

فَقُلْتُ: لا!

قَـالَ: فَهَجَرَنَا أَبِي، وَسَـدَّ الأَبْـوَابَ بَيْنَنَا وَبَيْنَـهُ، وَتَحَامَى مَنَازِلَنَا.

ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةً فِي دُعَائِهِ صَالِحًا، وَمُعَاتَبَتِه لَهُ، ثُمَّ فِي كِتَابَتِهِ إِلَـى يَحْيَى بـنِ خَاقَانَ لِيَتـرُكَ مَعُونَـةَ أَوْلاَدِهِ، وَأَنَّ الخَبَرَ بَلَغَ المُتَوَكِّلَ، فَأَمَرَ بِحَمْلِ مَا اجْتَمَعَ لَهُم مِنْ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ إِلَيْهِم، فَكَانَ أَرْبَعِيْنَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

وَأَنَّ أَبَـا عَبْـدِ اللهِ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَسَـكَتَ قَلِيْـلاً، وَأَطرق، ثُـمَّ قَـالَ: مَـا حِيلَتِـي إِنْ أَرَدْتُ أَمـراً، وَأَرَادَ اللهُ أَمـراً؟ وَإِلَى الإِمَـامِ أَحْمَدَ المُنْتَهَى فِي مَعْرِفَةِ السُّـنَّةِ عِلْمـًا وَعَمَلاً، وَفِـي مَعْرِفَةِ الحَدِيْثِ وَفُنونِه، وَمَعْرِفَـةِ الفِقْهِ وَفُرُوْعِه. وَكَانَ رَأْسـًا فِي الزُّهْدِ وَالوَرَعِ وَالعِبَادَةِ وَالصِّدْقِ.

قـال المَرُّوْذِيُّ، قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللهِ: مَـا كَتَبْتُ حَدِيْثـًا إِلاَّ وَقَـدْ عَمِلتُ بِـهِ، حَتَّى مَرَّ بِـي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتَجَمَ وَأَعطَى أَبَا طيبَةَ دِيْنَاراً، فَاحتجمْتُ وَأَعطيتُ الحجَّامَ دِيْنَاراً.



وقال: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ: مَنْ مَاتَ عَلَى الإِسْلاَمِ وَالسُّنَّةِ، مَاتَ عَلَى خَيْرٍ؟ فَقَالَ: بَلْ مَاتَ عَلَى الخَيْرِ كُلِّهِ.

وقَالَ المَيْمُوْنِيُّ: قَالَ لِي أَحْمَدُ: يَا أَبَا الحَسَنِ، إِيَّاكَ أَنْ تَتَكلّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَكَ فِيْهَا إِمَامٌ.

وقَالَ الفَضْلُ بنُ زِيَادٍ، سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ يَقُوْلُ: مَنْ ردَّ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ عَلَى شَفَا هَلَكَةٍ.

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ التِّرْمِذِيُّ: كُنْتُ أَنَا وَأَحْمَدُ بنُ الحَسَنِ التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، فَقَالَ لَهُ أَحْمَدُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، ذَكَرُوا لاِبْنِ أَبِي قتيلَةَ بِمكَّةَ أَصْحَابَ الحَدِيْثِ، فَقَالَ: أَصْحَابُ الحَدِيْثِ قَوْمُ سوءٍ. فَقَامَ أَبُو عَبْدِ اللهِ ينفُضُ ثَوْبَه، وَيَقُوْلُ: زِنْدِيْقٌ زِنْدِيْقٌ، وَدَخَلَ البَيْتَ.

❊❊❊

وَمِنْ سِيْرَتِهِ

قَـالَ عَبْدُ المَلِكِ المَيْمُوْنِيُّ: مَا رَأَيْـتُ عِمَامَةَ أَبِي عَبْدِ اللهِ قَطُّ إِلاَّ تَحْتَ ذَقنِهِ، وَرَأَيْتهُ يَكْرَهُ غَيْرَ ذَلِكَ.

وقـال المَيْمُوْنِي: مَـا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُ أَحَـداً أَنظفَ بَدنـًا، وَلاَ أَشَـدَّ تَعَاهداً لِنَفْسِهِ فِي شَارِبِهِ وَشَـعرِ رَأْسهُ وَشعرِ بَدنِه، وَلاَ أَنْقَى ثَوبـًا بِشِدَّةِ بيَاضٍ مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقـال عَاصِمَ بنَ عِصَام البَيْهَقِي: بِتُّ لَيْلَـةً عِنْدَ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، فَجَاءَ بِمَاءٍ فَوَضَعَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ نَظَرَ إِلَى المَاءِ بِحَالِهِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! رَجُلٌ يَطْلُبُ العِلْمَ لاَ يَكُوْنُ لَهُ وِردٌ بِاللَّيْلِ.

وَقَالَ عَبْدُ الله: سَـمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: رُبَّمَا أَرَدْتُ البُكورَ فِي الحَدِيْثِ، فَتَأْخُذُ أُمِّي بِثَوبِي، وَتَقُوْلُ: حَتَّى يُؤَذِّنَ المُؤَذِّنُ.

قـال الكُدَيْمِيُّ: حَدَّثَنَـا عَلِيُّ بنُ المَدِيْنِيِّ، قَـالَ لِي أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: إِنِّي لأَشْـتَهِي أَنْ أَصحبَكَ إِلَى مكَّـةَ، وَمَا يَمْنَعنِي



إِلاَّ خوفُ أَنْ أَملَّكَ أَوْ تَمَلَّنِي.

فَلَمَّا وَدعتُهُ، قُلْتُ: أوصِنِي.

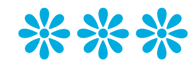
قَالَ: اجعلِ التَّقْوَى زَادَكَ، وَانصبِ الآخِرَةَ أَمَامَك.

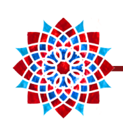
قـال عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَد: رَأَيْتُ كَثِيراً مِنَ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ وَالمُحَدِّثِيْنَ، وَبَنِي هَاشِـم وَقُرَيْش وَالأَنْصَـارِ، يُقَبِّلُوْنَ أَبِي، بَعْضُهُـم يدَهُ، وَبَعْضُهم رَأْسَـهُ، وَيُعَظِّمُونَهُ تعَظِيْمـاً لَمْ أَرَهُمْ يَفْعَلُوْنَ ذَلِكَ بأحدٍ مِنَ الفُقَهَاءِ غَيْرِهِ، وَلَمْ أَرَهُ يَشتهِي ذَلِكَ.



وَمِنْ تَوَاضُعِهِ

قال أَحْمَدُ بنُ الحَسَنِ التِّرْمِذِي: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ يَشترِي الخُبْزَ مِنَ السُّوْقِ، وَيَحملُهُ فِي الزَّنْبِيلِ، وَرَأَيْتُهُ يَشترِي البَاقِلَّاءَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَيَجْعَلُهُ فِي خِرقَةٍ، فَيَحمِلُه.

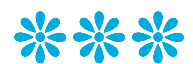


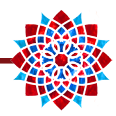


ومِنْ جِهَادِهِ

قَــالَ عَبْدُ اللهِ بــنُ مَحْمُوْدِ بنِ الفَرَجِ: سَــمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ أَحْمَدَ يَقُوْلُ: خَرَجَ أَبِي إِلَى طَرَسُوْسَ، وَرَابَطَ بِهَا، وَغزَا.

وَقَالَ لِرَجُلٍ: عَلَيْك بِالثَّغْرِ، عَلَيْك بِقَزْوِيْنَ، وَكَانَتْ ثَغْراً.





فَصْلٌ

قـال الحُسَـيْنِ بنِ إِسْـمَاعِيْل: قَالَ أبـي: كَانَ يَجتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءُ خَمْسَةِ آلاَفٍ يَكْتُبُوْنَ الحديث، وَالبَاقُوْنَ يَتَعلَّمُوْنَ مِنْهُ حُسْنَ الأَدَبِ وَالسَّمْتِ.

وقـال أَبو بَكْرٍ بـنَ المُطَّوِّعِي: اخْتَلَفتُ إِلَـى أَبِي عَبْدِ اللهِ ثِنْتَي عَشْرَةَ سَنَةً، وَهُوَ يَقْرَأُ (المُسْنَدَ) عَلَى أَوْلاَدِه، فَمَا كَتَبْتُ عَنْهُ حَدِيْثًا وَاحِداً، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخلاَقِهِ.

قـال عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ الـوَرَّاقُ: كُنْتُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، فقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقبلتُم؟

قُلْنَا: مِنْ مَجْلِسِ أَبِي كُرَيْبٍ.

فَقَالَ: اكتُبُوا عَنْهُ، فَإِنَّه شَيْخٌ صَالِحٌ.

فَقُلْنَا: إِنَّه يَطْعُنُ عَلَيْك.



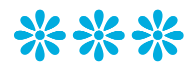
فَقَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ حِيلَتِي؟ شَيْخٌ صَالِحٌ قَدْ بُلِيَ بِي.

قـال أَبو جَعْفَـر: كَانَ أَحْمَدُ مِنْ أَحيَى النَّـاسِ وَأَكرمِهِم، وَأَحسَـنهِم عِشْـرَةً وَأَدبـًا، كَثِيْـرَ الإِطْرَاقِ، لاَ يُسـمَعُ مِنْهُ إِلاَّ المُذَاكَـرَةُ لِلْحَدِيْثِ، وَذِكْـرُ الصَّالِحِيْنَ فِي وَقَارٍ وَسُـكُوْنٍ، وَلَفْظٍ حَسَـنٍ، وَإِذَا لَقِيَهُ إِنْسَـانٌ، بَشَّ بِهِ، وَأَقبَـلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَتَوَاضعُ لِلشُّـيُوْخِ شَـدِيْداً، وَكَانُـوا يُعَظِّمُونَـهُ، وَكَانَ يَفْعَلُ بِيَحْيَى بنِ مَعِيْنٍ مَا لَمْ أَرَهُ يَعْمَلُ بِغَيْرِهِ مِنَ التَّوَاضُعِ وَالتَّكْرِيْمِ وَالتَّبجِيلِ، كَانَ يَحْيَى أَكْبَرَ مِنْهُ بِسَبعِ سِنِيْنَ.

وقـال عَبْـدُ اللهِ بـنُ أَحْمَـدَ: كَانَ أَبِـي إِذَا أَتَـى البَيْتَ مِنَ المَسْـجِدِ، ضَرَبَ بِرِجْلِهِ حَتَّى يَسـمَعُوا صَوتَ نَعْلِهِ، وَرُبَّمَا تَنَحْنَحَ لِيَعلمُوا بِهِ.

وَقَـالَ عَبْدُوْسُ العَطَّارُ: وَجَّهْتُ بِابْنِي مَعَ الجَارِيَةِ يُسَـلِّمُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَرَحَّبَ بِهِ، وَأَجْلَسَـهُ فِي حَجْرِهِ، وَسَاءلَهُ، وَاتَّخَذَ لَهُ خَبِيصـًا، وَقَالَ لِلْجَارِيَةِ: كُلِي مَعَهُ، وَجَعَلَ يُبسِطُهُ.

وَقَـالَ المَيْمُوْنِـيُّ: كَانَ أَبُـو عَبْدِ اللهِ حَسَـنَ الخُلُقِ، دَائِمَ البِشْرِ، يَحْتَمِلُ الأَذَى مِنَ الجَارِ.





مَعِيْشَتِهِ

قَالَ ابْـنُ الجَوْزِيِّ: خَلَّفَ لَـهُ أَبُوْهُ طرزاً وَدَاراً يَسْـكُنُهَا، فَكَانَ يَكرِي تِلْكَ الطرزَ، وَيَتَعَفَّفُ بِهَا.

قُلْتُ: وَرُبَّمَا نَسَـخَ بِأُجْـرَةٍ، وَرُبَّمَا عَمِلَ التِّـكَكَ، وَأَجَّرَ نَفْسَهُ لِجمَّالٍ. رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ.



فَصْلٌ

قَالَ ابْنُ عَقِيْل: مِنْ عَجِيْبِ مَا سَمِعتُه عَنْ هَؤُلاَءِ الأَحدَاثِ الجُهَّالِ أَنَّهُم يَقُوْلُوْنَ: أَحْمَدُ بن حنبل لَيْسَ بِفَقِيْهٍ، لَكِنَّهُ مُحَدِّثٌ.

قَالَ: وَهَذَا غَايَةُ الجَهْلِ؛ لأَنَّ لَهُ اخْتِيَارَاتٍ بَنَاهَا عَلَى الأَحَادِيْثِ بِنَاءً لاَ يَعْرِفُهُ أَكْثَرُهُم، وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى كِبَارِهِم.

قُلْتُ: أَحسبُهُم يَظُنُّوْنَهُ كَانَ مُحَدِّثًا وَبَسْ! بَلْ يَتَخَيَّلُونَه مِنْ بَابَةِ مُحَدِّثِي زَمَانِنَا، وَوَاللهِ لَقَدْ بَلَغَ فِي الفِقْهِ خَاصَّةً رُتْبَةَ اللَّيْثِ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي يُوْسُفَ، وَفِي الزُّهْدِ وَالوَرَعِ رُتْبَةَ الفَضْل، وَإِبْرَاهِيْمَ بنِ أَدْهَمَ، وَفِي الحِفْظِ رُتْبَةَ شُعْبَةَ، وَيَحْيَى القَطَّانِ، وَابْنِ المَدِيْنِيِّ، وَلَكِنَّ الجَاهِلَ لاَ يَعلَمُ رُتْبَةَ نَفْسِه، فَكَيْفَ يَعرِفُ رُتْبَةَ غَيْرِهِ.



فَصْلٌ

قَـالَ ابْنُ الجَـوْزِيِّ: كَانَ الإِمَـامُ لاَ يَرَى وَضْـعَ الكُتُبِ، وَيَنْهَـى عَنْ كِتْبَـةِ كَلاَمِهِ وَمَسَـائِلِهِ، وَلَوْ رَأَى ذَلِـكَ، لَكَانَتْ لَـهُ تَصَانِيْـفُ كَثِيْرَةٌ، وَصَنَّفَ (المُسْـنَدَ)؛ وَهُـوَ ثَلاَثُوْنَ أَلْفَ حَدِيْـثٍ، وَكَانَ يَقُوْلُ لاِبْنِهِ عَبْدِ اللهِ: احتَفِظْ بِهَذَا (المُسْـنَدِ)، فَإِنَّه سَـيَكُوْنُ لِلنَّاسِ إِمَامـًا، وَ(التَّفْسِـيْرَ) وَهُوَ مائَةٌ وَعِشْرُوْنَ أَلْفـًا، وَ(النَّاسِخَ وَالمَنْسُوْخَ)، وَ(التَّارِيْخَ)، وَ(حَدِيْث شُعْبَةَ)، وَ(المُقَـدَّمَ وَالمُؤَخَّـرَ فِـي القُـرْآنِ)، وَ(جَوَابَـاتِ القُرْآنِ)، وَ(المَنَاسِكَ) الكَبِيْرَ وَالصَّغِيْرَ، وَأَشْيَاءَ أُخَرَ.

قُلْتُ: وَكِتَابَ (الإِيْمَانِ)، وَكِتَابَ (الأَشْـرِبَةِ)، وَرَأَيْتُ لَهُ وَرَقَةً مِنْ كِتَابِ (الفَرَائِضِ).

وتَفْسِيْرُهُ المَذْكُوْرُ شَيْءٌ لاَ وُجُوْدَ لَهُ، وَلَوْ وُجِدَ، لاَجْتَهَدَ الفُضَلاَءُ فِـي تَحْصِيْلِهِ، وَلاَشْـتُهِرَ، ثُمَّ لَوْ أَلَّفَ تَفْسِـيْراً، لَمَا

كَانَ يَكُوْنُ أَزْيَدَ مِنْ عَشْـرَةِ آلآفِ أَثَرٍ، وَلاَقْتَضَى أَنْ يَكُوْنَ فِي خَمْسِ مُجَلَّدَاتٍ.

فَهَذَا (تَفْسِـيْرُ ابْنِ جَرِيْرٍ) الَّذِي جَمَعَ فِيْهِ فَأَوعَى، لاَ يَبلُغُ عِشْرِيْنَ أَلْفـًا.

وَمَـا ذَكَرَ (تَفْسِـيْرَ أَحْمَدَ) أَحَدٌ سِـوَى أَبِي الحُسَـيْنِ بنِ المُنَـادِي، فَقَالَ فِي (تَارِيْخِهِ): لَـمْ يكُنْ أَحَدٌ أَرْوَى فِي الدُّنْيَا عَنِ أَبِيْهِ مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أَحْمَدَ؛ لأَنَّه سَـمِعَ مِنْهُ (المُسْنَدَ) وَهُوَ ثَلاَثُوْنَ أَلْفـًا، وَ(التَّفْسِيْرَ) وَهُوَ مائَةٌ وَعِشْرُوْنَ أَلْفـًا.

قَـالَ ابْـنُ الجَـوْزِيِّ: وَلَـهُ -يَعْنِـي: أَبـا عَبْـدِ اللهِ- مِـنَ المُصَنَّفَاتِ: كِتَابُ (نَفْيِ التَّشبِيهِ) مُجَلَّدَةٌ، وَكِتَابُ (الإِمَامَةِ) مُجَلَّدَةٌ صَغِيْـرَةٌ، وَكِتَابُ (الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَـةِ) ثَلاَثَةُ أَجْزَاءٍ، وَكِتَـابُ (الزُّهْدِ) مُجَلَّـدٌ كَبِيْرٌ، وَكِتَابُ (فَضَائِـلِ الصَّحَابَةِ) مُجَلَّدَةٌ، وَكِتَابُ (الرِّسَـالَةِ فِي الصَّلاَةِ) -قُلْتُ: هُوَ مَوْضُوْعٌ عَلَى الإِمَامِ.



وَقَدْ دَوَّنَ عَنْهُ كِبَارُ تَلاَمِذَتِهِ مَسَائِلَ وَافِرَةً فِي عِدَّةِ مُجَلَّدَاتٍ، كَالمَرُّوْذِيِّ، وَالأَثْرَم، وَحَرْبٍ، وَابْنِ هَانِئٍ، وَالكَوْسَج، وَأَبِي طَالِبٍ، وَفُوْرَانَ، وَمُهَنَّا الشَّـامِيِّ، وَصَالِحِ بنِ أَحْمَدَ، وَأَخِيْهِ، وَابْنِ عَمِّهِمَا؛ حَنْبَلٍ[1].

وَجَمَـعَ أَبُو بَكْرٍ الخَلاَّلُ سَـائِرَ مَا عِنْدَ هَـؤُلاَءِ مِنْ أَقْوَالِ أَحْمَدَ، وَفَتَاوِيهِ، وَكَلاَمِه فِي العِلَلِ وَالرِّجَالِ وَالسُّنَّةِ وَالفُرُوْعِ، حَتَّى حَصَلَ عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لاَ يُوصَفُ كَثْرَةً.

وَرَحَلَ إِلَـى النَّوَاحِي فِي تَحْصِيْلِهِ، وَكَتَـبَ عَنْ نَحْوٍ مِنْ مائَةِ نَفْسٍ مِنْ أَصْحَابِ الإِمَامِ.

ثُمَّ كَتَبَ كَثِيْراً مِنْ ذَلِكَ عَـنِ أَصْحَابِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ أَخَذَ فِي تَرْتِيْبِ ذَلِك وَتَهْذِيْبِهِ، وَتَبْوِيبِهِ.

وَعَمِـلَ كِتَـابَ (العِلْـمِ)، وَكِتَـابَ (العِلَـلِ)، وَكِتَـابَ

---

(١) ذكر المؤلف (الذهبي) خمسين ممن دوَّن مسائل أحمد، رحمة الله عليهم.

(السُّـنَّةِ)، كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلاَثَة فِي ثَـلاث مُجَلَّدَاتٍ. وَأَلَّفَ كِتَابَ (الجَامِعِ) فِي بِضْعَةَ عَشَرَ مُجَلَّدَةً، أَوْ أَكْثَرَ.

وَقَـدْ قَالَ: فِـي كِتَابِ (أَخْلاَقِ أَحْمَدَ بـن حَنْبَلٍ) لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فيما عَلِمتُ عُنِيَ بِمَسَائِلِ أَبِي عَبْدِ اللهِ قَطُّ، مَا عُنِيتُ بِهَا أَنَا.

وَمَوْلِـدُ الخَـلاَّلِ كَانَ فِي حَيَـاةِ الإِمَامِ أَحْمَـدَ، يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ رَآهُ وَهُوَ صَبِيٌّ.





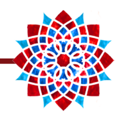
زَوْجَاتُ الإمام أحمد وَآلُه

قَـالَ زُهَيْرُ بنُ صَالِحٍ: تَـزَوَّجَ جَدِّي بِأُمِّ أَبِي عَبَّاسَـةَ، فَلَمْ يُولَدْ لَهُ مِنْهَا سِـوَى أَبِي، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا رَيْحَانَةَ -امْرَأَةً مِنَ العَرَبِ- فَمَا وَلَدَتْ لَهُ سِوَى عَمِّي عَبْدِ اللهِ.

قَـالَ المَرُّوْذِيَّ، سَـمِعْتُ أَبَا عَبْـدِ اللهِ ذَكَرَ أَهْلَـه، فَتَرَحَّمَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: مَكَثْنَا عِشْرِيْنَ سَنَةً، مَا اخْتَلَفْنَا فِي كَلِمَةٍ.

وَقَالَ زُهَيْرٌ: لَمَّا تُوُفِّيَتْ أُمُّ عَبْدِ اللهِ، اشْتَرَى جَدِّي حُسْنَ، فَوَلَدَتْ لَهُ أُمَّ عَلِيٍّ زَيْنَبَ، وَالحَسَـنَ وَالحُسَيْنَ تَوْأَمـًا، وَمَاتَا بِالقُرْبِ مِنْ وِلاَدَتِهِمَا، ثُمَّ وَلَدَتِ الحَسَـنَ وَمُحَمَّداً، فَعَاشَـا نَحْوَ الأَرْبَعِيْنَ، وَوَلَدَتْ بَعْدَهُمَا سَعِيْداً.

وَكَانَ أَسَـنَّ بَنِـي أَحْمَدَ بنِ حَنْبَـلٍ صَالِحٌ، فَوَلِـيَ قَضَاءَ أَصْبَهَانَ، وَمَاتَ بِهَا سَـنَةَ خَمْسٍ وَسِـتِّيْنَ وَمائَتَيْنِ، عَنْ نَيِّفٍ وَسِتِّيْنَ سَنَةً.



وَأَمَّا الوَلَدُ الثَّانِي، فَهُوَ الحَافِظُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدُاللهِ بنُ أَحْمَدَ، رَاوِيَةُ أَبِيْهِ، مِنْ كِبَارِ الأَئِمَّةِ، مَاتَ سَنَةَ تِسْعِيْنَ وَمائتَيْنِ، عَنْ سَبْعٍ وَسَبْعِيْنَ سَنَةً، وَلَهُ تَرْجَمَةٌ أَفرَدتُهَا.

وَالوَلَدُ الثَّالِثُ سَعِيْدُ بنُ أَحْمَدَ، فَهَذَا وُلِدَ لأَحْمَدَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسِيْنَ يَوْماً، فَكَبِرَ وَتَفَقَّهَ، وَمَاتَ قَبْلَ أَخِيْهِ عَبْدِ اللهِ.

وَأَمَّا حَسَنٌ وَمُحَمَّدٌ وَزَيْنَبُ، فَلَمْ يَبلُغْنَا شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِهِم، وَانْقَطَعَ عَقِبُ أَبِي عَبْدِ اللهِ فِيْمَا نَعْلَمُ.

❁❁❁



مَرَضُه

قَالَ عَبْدُ اللهِ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: استكمَلْتُ سَبْعًا وَسَبْعِيْنَ سَنَةً، وَدَخَلتُ فِي ثَمَان.

وَقَالَ صَالِحٌ: لَمَّا كَانَ أَوّلُ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ مَنْ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِيْنَ وَمائَتَيْنِ، حُمَّ أَبِي لَيْلَةَ الأَربِعَاءِ، وَبَاتَ وَهُوَ مَحمُومٌ، يَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا شَدِيْداً.

وَكَثُرَ النَّاسُ، فَقَالَ: فَمَا تَرَى؟

قُلْتُ: تَأْذَنُ لَهُم، فَيَدعُونَ لَكَ. قَالَ: أَسْتَخيرُ اللهَ.

فَجَعَلُوا يَدخُلُوْنَ عَلَيْهِ أَفوَاجًا، حَتَّى تَمتَلِئَ الدَّارُ، فَيَسْأَلُوْنَه، وَيَدْعُونَ لَهُ، وَيَخرُجُوْنَ، وَيَدْخُلُ فَوجٌ، وَكَثُرَ النَّاسُ، وَامتَلأَ الشَّارِعُ، وَأَغلَقْنَا بَابَ الزُّقَاقِ، وَجَاءَ جَارٌ لَنَا قَدْ خَضَبَ، فَقَالَ أَبِي: إِنِّي لأَرَى الرَّجُلَ يُحيِي شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ، فَأَفْرَحُ بِهِ.



فَقَالَ لِي: وَجِّهْ فَاشْتَرِ تَمْراً، وَكَفِّرْ عَنِّي كَفَّارَةَ يَمِيْنٍ.

وكُنْـت أَنَامُ إِلَى جَنْبِهِ، فَإِذَا أَرَادَ حَاجَـةً، حَرَّكَنِي فَأُنَاوِلُه، وَجَعَلَ يُحرِّكُ لِسَـانَه، وَلَمْ يَزَلْ يُصَلِّي قَائِمـًا، أُمْسِكُهُ فَيَركَعُ وَيَسجُدُ، وَأَرفَعُهُ فِي رُكُوْعِهِ.

قَـالَ: وَاجْتَمَعتْ عَلَيْهِ أَوجَاعُ الحَصْـرِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَزَلْ عَقلُه ثَابِتـًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ، لاِثْنَتَي عَشْـرَةَ خَلَتْ مِنْ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ، لِسَاعَتَيْنِ مِنَ النَّهَارِ، تُوُفِّيَ.

وَقَالَ المَرُّوْذِيُّ: مَرِضَ أَحْمَدُ تِسْـعَةَ أَيَّامٍ، وَكَانَ رُبَّمَا أَذِنَ لِلنَّاسِ، فَيَدخُلُوْنَ عَلَيْهِ أَفوَاجـًا، يُسَلِّمُوْنَ وَيَردُّ بِيَدِهِ، وَتَسَامَعَ النَّاسُ وَكَثُرُوا.

وَسَـمِعَ السُّـلْطَانُ بِكَثْـرَةِ النَّاسِ، فَـوَكَّلَ السُّـلْطَانُ بِبَابِهِ وَبِبَـابِ الزُّقَاقِ الرَّابطَـةَ وَأَصْحَابَ الأَخْبَارِ، ثُـمَّ أَغلقَ بَابَ الزُّقَاقِ، فَكَانَ النَّاسُ فِي الشَّـوَارِعِ وَالمَسَـاجِدِ، حَتَّى تَعَطَّلَ بَعْضُ البَاعَةِ.



وَجَاءهُ حَاجبُ ابْنِ طَاهِرٍ، فَقَالَ: إِنَّ الأَمِيرَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ، وَهُوَ يَشْتَهِي أَنْ يَرَاكَ.

فَقَالَ: هَذَا مِمَّا أَكرَهُ، وَأَمِيرُ المُؤْمِنِيْنَ قَد أَعفَانِي مِمَّا أَكرَهُ.

وَجَاءَ بَنُو هَاشِمٍ، فَدَخلُوا عَلَيْهِ، وَجَعَلُوا يَبْكُوْنَ عَلَيْهِ.

وَجَاءَ قَوْمٌ مِنَ القُضَاةِ وَغَيْرُهُم، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُم.

وَدَخَلَ عَلَيْهِ شَيْخٌ، فَقَالَ: اذكُرْ وُقُوْفَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ.

فَشَهقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ، وَسَالَتْ دُمُوعُهُ، فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ وَفَاتِه بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، قَالَ: ادْعُوا لِيَ الصِّبْيَانَ بِلِسَانٍ ثَقِيْلٍ.

قَالَ: فَجَعَلُوا يَنضَمُّوْنَ إِلَيْهِ، وَجعَلَ يَشُمُّهُم وَيَمسَحُ رُؤُوْسَهُم، وَعَينُهُ تَدمَعُ.

وَاشْتَدَّتْ عِلَّتُهُ يَوْمَ الخَمِيْسِ، وَوَضَّأْتُهُ، فَقَالَ: خَلِّلِ الأَصَابِعَ.

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الجُمُعَةِ، ثَقُلَ، وَقُبِضَ صَدْرَ النَّهَارِ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَعَلَتِ الأَصوَاتُ بِالبكَاءِ، حَتَّى كَأَنَّ الدُّنْيَا قَدِ

ارتَجَّتْ، وَامتَلأَتِ السُّكَكُ وَالشَّوَارِعُ.

قَالَ المَرُّوْذِيُّ: فأُخرِجَتِ الجَنَازَةُ بَعْدَ مُنصَرَفِ النَّاسِ مِنَ الجُمُعَةِ.

قَالَ صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ: وَجَّهَ ابْنُ طَاهِرٍ -يَعْنِي: نَائِبَ بَغْدَادَ- بِحَاجِبِهِ مُظَفَّرٍ، وَمَعَهُ غُلاَمَانِ مَعَهُمَا مَنَادِيلُ فِيْهَا ثِيَابٌ وَطِيْبٌ، فَقَالُوا: الأَمِيْرُ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ، وَيَقُوْلُ: قَدْ فَعَلتُ مَا لَوْ كَانَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ حَاضِرَهُ كَانَ يَفْعَلُهُ.

فَقُلْتُ: أَقرِئِ الأَمِيرَ السَّلاَمَ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ قَدْ أَعْفَى أَبَا عَبْدِ اللهِ فِي حَيَاتِه مِمَّا يَكْرَهُ، وَلاَ أُحِبُّ أَنْ أُتْبِعَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ بِمَا كَانَ يَكرَهُهُ.

فَعَادَ، وَقَالَ: يَكُوْنُ شِعَارَهُ، فَأَعَدتُ عَلَيْهِ مِثْلَ قَوْلِي.

وَقَدْ كَانَ غَزَلَتْ لَهُ الجَارِيَةُ ثَوبًا عُشَارِيًّا قُوِّمَ بِثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِيْنَ دِرْهَمًا، لِيَقْطَعَ مِنْهُ قَمِيصَيْنِ، فَقَطَعنَا لَهُ لُفَافَتَيْنِ، وَأَخَذنَا مِنْ فُوْرَانَ لُفَافَةً أُخْرَى، فَأَدرَجْنَاهُ فِي ثَلاَثِ لَفَائِفَ.



وَاشْـتَرَيْنَا لَهُ حَنُوطًا، وَفُرِغَ مِنْ غَسْـلِهِ، وَكَفَّنَّاهُ، وَحَضَرَ نَحْوُ مِائَـةٍ مِنْ بَنِي هَاشِـمٍ، وَنَحْـنُ نُكَفِّنُهُ، وَجَعَلُـوا يُقَبِّلُوْنَ جَبهَتَهُ حَتَّى رَفَعنَاهُ عَلَى السَّرِيْرِ.

قَالَ عَبْدَ الوَهَّابِ الوَرَّاقَ: مَا بَلَغنَا أَنَّ جَمعـًا فِي الجَاهِلِيَّةِ وَلاَ الإِسْـلاَمِ مِثْلُهُ -يَعْنِي: مَنْ شَـهِدَ الجَنَازَةَ- حَتَّى بَلَغَنَا أَنَّ المَوْضِعَ مُسِـحَ وَحُزِرَ عَلَى الصَّحِيْحِ، فَإِذَا هُوَ نَحْوٌ مِنْ أَلفِ أَلفٍ[1].

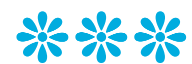
قَالَ مُوْسَى بنُ هَارُوْنَ الحَافِظُ: يُقَالُ: إِنَّ أَحْمَدَ لَمَّا مَاتَ، مُسِحَتِ الأَمكِنَةُ المَبْسُوْطَةُ الَّتِي وَقَفَ النَّاسُ لِلصَّلاَةِ عَلَيْهَا، فَحُزِرَ مَقَادِيرُ النَّاسِ بِالمَسَـاحَةِ عَلَى التَّقْدِيْرِ سِتَّ مائَةِ أَلْفٍ أَوْ أَكْثَرَ، سِـوَى مَـا كَانَ فِي الأَطرَافِ وَالحوَالِي وَالسُّـطُوحِ وَالمَوَاضِعِ المُتَفرِّقَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَلفِ أَلفٍ.

---

(١) يعني مليون رجل، وهذا عدد الذين شهدوا جنازة الإمام أحمد.

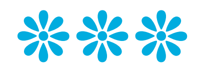
وَفَتَـحَ النَّـاسُ أَبوَابَ المَنَـازِلِ فِي الشَّـوَارِعِ وَالدُّرُوبِ، يُنَادُوْنَ مَنْ أَرَادَ الوُضُوءَ.

قَالَ الخَلَّالُ: سَـمِعْتُ ابْـنَ أَبِي صَالِحِ القَنْطَـرِيَّ يَقُوْلُ: شَـهِدتُ المَوسِـمَ (الحج) أَرْبَعِيْنَ عاماً، فَمَا رَأَيْتُ جَمْعـاً قَطُّ مِثْلَ هَذَا. يَعْنِي: مَشْهَدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.





الفهرس




التصميم الداخلي للكتاب
Tharwat Sultan
للتواصل:
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com